سلسلة محاضرات لجنة علم النفس

الجزء الثانى

خلال الفترة
من
يناير إلى يونيو ٢٠٠١ م



لجنة علم النفس

المجلس الأعلى للثقافة
لجنة علم النفس

سلسلة محاضرات لجنة علم النفس

الجزء الثانى

(يناير ٢٠٠١ : يونيو ٢٠٠١)



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سلسلة محاضرات لجنة علم النفس ، الجزء الثانى

القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، لجنة علم النفس ، ط ١ ، ٢٠٠٨

١٦٤ ص ، ٢٤ سم . - (سلسلة المحاضرات ؛ الكتاب الثانى).

١ - علم النفس - محاضرات.

أ - العنوان

ب - السلسلة ١٥٠,٤

رقم الإيداع ١١٣٥٢ / ٢٠٠٧

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-437-347 -2

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084

المشاركون

في هذا الكتاب

١ - أ. د. مصطفى سويف .

٢ - أ. د. عبد السلام أحمدى الشيخ .

أستاذ علم النفس ، كلية الآداب ، جامعة طنطا .

٣ - أ. د. محيى الدين أحمد حسين .

أستاذ علم النفس ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

٤ - أ. د. فادية علوان .

رئيس قسم علم النفس ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

٥ - أ. د. محمود السيد أبو النيل .

أستاذ علم النفس ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس .

٦ - أ. د. قدرى حفنى .

أستاذ علم النفس ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس .

مقدمة

يضم هذا الكتاب بين دفتيه المجموعة الثانية من سلسلة المحاضرات التى تقدمها "لجنة علم النفس" فى رحاب المجلس الأعلى للثقافة . وتتألف من ست محاضرات تقع جميعًا ضمن الإطار الذى رسمت معالمه المحاضرة الأولى من السلسلة الأولى (أو الكتاب الأول) ، وكانت بعنوان "علم النفس المعاصر : الإنجازات والوعود" ؛ فى هذا الإطار تمضى المحاضرات الست الجديدة ، وهى تتناول الإنجازات والوعود فى ستة مجالات مختلفة ، هى : التذوق الفنى ، والقانون ، والإعلام ، والصناعة والسياسة. وجدير بالذكر فى هذا الموضع أن الأساتذة الأفاضل الذين قدموا هذه المحاضرات ذوو إسهامات متميزة كلٌّ فى المجال الذى تكلم فيه ، وهو أمر أتاح لكل منهم نطاقًا متسعًا فيما يتعلق باختيار ما يعتبره ذا دلالة جوهرية بين موضوعات المجال الذى تكلم فى نطاقه .

وفقّنا الله جميعًا فى أداء رسالتنا

مصطفى سويف

أكتوبر ٢٠٠٧

علـم النـفس والـتذوق الجـمالـى

عبد السلام أحمدى الشيخ

أولاً – مدخل :

يدور موضـوع هذه المحاضـرة حـول علم النفس والتذوق الجمالى – وهـو موضـوع جديد ومـعقد كمـا سنرى – مما يتطلــب منا تحليل عنوان هذا الموضـوع إلى عناصـره بما قد ييسر فهمه .

ونبــدأ فى تحليل هــذا المفـهوم بشــرح : مـا هو علـم النفس ؟ ومـع التـسليم بأنه سؤال لم يعد مطروحاً فى الوقت الحـالى ، حيث عنى كثير من البـاحثين بالإجابة عليه ، وأصبح علماً مستقلاً كأى علم ، إلا أننى أرى أنه من المستحسن أن أطرح وجهة نظرى التى سوف أتبعها فى هذه المحاضرة عن ما هو علم النفس ؟

نرى أن هذا المفهوم يدور حول محورين أساسيين وهما :

المحور الأول : ويرى أن علم النفس هو علم له منهجه الخاص به والذى يناسب موضوعه الخـاص أيضـاً ، باعتبار أن النفس البشرية أو السلوك هو كل ديناميكى معقد لا يمكن إخضـاعه للمنهج العلمى المتعـارف عليه فى العلوم الفيزيائية . ولـهذا المحـور وجوده وعطائه وخصوبته أيضـاً ، إلا إننى فى هذه المحـاضرة أستسمحكم ألا أتبع هذا المحور ، وأن أتمسك بالمعانى الحرفية للكلمـات ، مادمنا فى مـجال علم كما سيأتى فى المحور الثانى .

المحور الثانى : وينظر إلى علم النفس باعتباره ذلك العلم الذى يجاهد لتطبيق مناهج العلوم الفيزيائية أو البيولوجية على الظاهرة السلوكية خاصة ، وإنه استطاع فى السنوات الأخيرة التوصل إلى ما يمكن أن نطلق عليه بثقة قوانين السلوك ، والتى تتسم بسمات القوانين البيولوجية ، حيث تعطينا هذه القوانين القدرة على التفسير والتنبؤ والتحكم . فهذه القوانين ليست مجرد كلمات تمتلك كل الألوان أو فكر يطير بلا أجنحة يحملها إلى عوالم تبدأ هنا وتنتهى داخلنا ، وهذه القوانين هى ما ينشد علم النفس التوصل إليها لكى تعطينا القدرة على التحكم فى مثل هذه الظواهر مثل التذوق الجمالى ، والذى بطبيعته ينفر من العبودية ويهرب إلى الآفاق الرحبة يبحث عن الحرية، ومن هنا قاوم كثير من علماء الجمال الدراسة العلمية التجريبية للتذوق الجمالى ومنهم Tain وكولنجود وسوزانا لانجر وبيندتو كروتشى .... إلخ . معتقدين أن التجريب سيفقد الموضوع جماله ويقيد حريته ، لذا فقد يفضلون الدراسات السيكولوجية التى لا تعتمد على التجريب أو القياس، بينما سوف نرى فى نهاية هذه المحاضرة أن التجارب العلمية قد اختزلت التذوق الجمالى إلى عناصره وحصرته داخل المعامل السيكولوجية ، وبدت وكأنها قيدته وشلت حريته وأخضعته للقياس والتحليلات الكمية والغريب أنها انتهت إلى الاكتشاف الحقيقى لطبيعة الجمال والتذوق الجمالى وقدرته غير المسبوقة على التحرر من القيود والتحليق فى سماء عالية بلا حدود . وبعد أن كنا ندعى منذ أرسطو وحتى الآن أن التذوق الجمالى يفرغ ما بنا من احباطات ومشاعر سلبية وأنه تطهير للنفس لأنه رقى بنا وتعاليًا عن الواقع المادى كما يسمو بالنفس البشرية ، وبعد أن كنا نقول هذا ونسلم به لأننا نعيشه ونشعر به بدون أن نعرف لماذا يفعل التذوق الجمالى بنا هذا؟ وكيف أصبحنا الآن بفضل التجارب العلمية السيكولوجية نعرف كيف ولماذا يفعل التذوق الفنى والجمالى بنا كل هذا ؟ ولماذا يطهرنا ؟ وما هو مفهوم التطهير هنا ؟ ولماذا يفرغ ما بنا من هموم ومكبوتات ؟ ولماذا يسمو بالنفس ويتعالى عن المادة ؟

ولم تزل النتائج العلمية فى هذا المجال كما سنرى فى بدايتها ، وتظهر على استحياء ، إلا أنها تبشر بانطلاقه علمية تجريبية خطيرة فى هذا النطاق كما سنرى :

ننتقل بعد هذا إلى مفهوم التذوق الجمالي :

بالطبع نجد أن هذا المصطلح ينقسم إلى نقطتين :

أ – التذوق :

والتـذوق العادى هـو أحد الحـواس الخمـس ، ويرتبـط بطعم الأطعمـة الكريهـة أو الجميلة. وبالرغم من أن المفكرين لم يحاولوا بشكل مباشر الربط بين التذوق الجمالى والتذوق الحسى، معتقدين أن التذوق الجمالى ظاهرة متعالية على المادة وليس ورائها فائدة أو منفعة بينما يرتبط التذوق الحسى بالمادة أو بالوقائع، بما يباعد بين المفهومين، ومما باعد بين عقل المفكرين وإمكانية طرح وجود علاقة ما بين التذوق الجمالى والحسى. غـير أن الدراسات المعاصـرة بدأت تطـرح احتمالات الكشف عن وجـود علاقة ما ، بل وقوية ، توحى باحتمالية نمو التذوق الجمالى من خلال الإحساس أو التذوق الحسى. وربما من أجـل هـذا ، وبدون وعى من المفكرين أطلقوا على علم الجمال الإسـتطيـقا (أى الإحساس بالجمال) .

وسوف نعرض هذا فى نهاية المحاضرة .

ب – الجمال :

يختلف مفهوم الجمال من ثقافة إلى أخرى ، بل من مفكر إلى آخر (أميرة مطر ، فلسفة الجمال ، المكتبة الثقافية ، رقم ٧٤ ، ص ٢٢) . فنظرة أرسطو تختلف عن نظرة أفلاطون، عن نظرة فيلون، عن نظرة هيجل للجمال، عن كانط، عن شوبنهور. وكل ما نود أن نشير إليه هنا أن مفهوم الجمال كموضوع خارج الذات غير مستقل وغير ثابت . والأمثلة على ذلك عديدة ومتنوعة . ومع هذا فلا يمكن أن ننكر أن الإنسان يحس بالجمال ويتـذوقه فى كل زمان ومكان ، بحيث قيل أن الإنسان ذواق للجمـال ،

ومن الصعب تصور إنسان عاقل لم يشعر فى حياته بالجمال . ولم يزل هذا الإحساس أو التذوق غامضاً غير مفهوم ، ومن هنا كانت محاولات الإنسان منذ القدم لفهم الجمال بل وإبداعه وتذوقه كما انعكست فى أساطير تدور حول الحب والعشق وحول آلهة الجمال كأفروديت أو فلسفات مثل أفلاطون ومثله .. ثم تطورت هذه الفلسفات للبحث عن الشروط التى تجعل من الموضوع الجمالى أكثر قدرة على استثارة تذوقنا الجمالى له . ومن هنا كان من الصعب فصل الجمال أو الجميل عن تذوقه ، وتبلورت هذه المشكلة تحت مسمى الدراسات الإستطيقية التى اتبعت المتاهة الفلسفية والمعيارية ، والتى ظلت تطور مناهجها حتى مرت أخيراً بمرحلتين فتحت إحداهما الطريق لعلم النفس كما سنرى :

المرحلة الأولى :

وهى تقع فى بداية القرن التاسع عشر ، حيث ركز معظم النقاد وفلاسفة الجمال على الموضوع الجميل وتحليله ومعرفة عناصره ومواطن الجمال فيه ومحاكاته . وهذه أمور نعرفها جميعًا ، وعلى سبيل المثال : ركز فيلسوف ومؤرخ بريطانى معروف هو Robin-Colling Wood (١٨٨٩/١٩٤٣) فى كتاب صدر له سنة ١٩٣٨ بعنوان : مبادئ الأدب أو الفن ، ركز فيه على الشكل والمحتوى ، ولم يهتم بالاستجابة كما فعل Rogres Fry فى كتاب بعنوان : Retrospect in Vision and Design (١٩٣٧ طبعة Pelictan) وركز على أسس توزيع الألوان والرسوم فى لوحة فنية . وطبق ذلك على لوحة فنية معروفة للعالم للفنان روفائيل بعنوان : التشكيل Configuration ، بمتحف الفاتيكان (روما) ، وحلل المحتوى حيث يرى مثلاً أن الجزء العلوى من هذه اللوحة يمثل القوة والعطاء ، والجزء السفلى منها يمثل الحاجة والعوز ، ويوضح وجود تكامل بينهما (انظر الصورة P. 200 ، مشكلات الإستطيقا) .

نجد نفس الاتجاه فى تحليل اللغة والعوامل التى تجعلها جميلة فى كتاب مشكلات الأدب والفن (Susanna Langer ، ١٨٩٥) ، وفى الموسيقى فى كتب الناقد الألمانى Edward Langer (١٨٢٥ – ١٩٠٤) فى مقال له عن الجمال فى الموسيقى ، وهكذا فى جميع الفنون مثل الدراما والرقص (مدخل إلى الرقص ، ١٩٣٩ ، John Marita) .

حاولت جميعها البحث عن الشروط التى تجعل من العمل الفنى جميلاً ، وحاولت أن تبتعد عن السلوك ، لكنها لم تستطع بالطبع ، بل كثيراً ما أشارت إلى أنها تحاول البحث فى تفسير سيكولوجى يوجد وراء الجمال المدرك فى موضوع الجمال ، ومن الواضح إذن أنها كانت إرهاصات بدور علم النفس فى إدراك أو تذوق الجمال .

المرحلة الثانية :

بدأت دعوة صريحة إلى دور علم النفس فى تفسير التذوق الجمالى . وتؤكد سوزرلاند أن الجماليات تشير إلى الدراسات النفسية والفلسفية لطبيعة الجمال (Sutherland 1989 P.12) ، وكذلك (Siralton & Hays P.13) ، حيث أكد أن الجماليات تتضمن بالضرورة الدراسة الخاصة بالخبرة الإدراكية للجمال .

فى تلك الفترة أيضاً ظهرت محاولات لتحديد الحدود الفاصلة بين دور علم النفس ودور الفلسفة فى دراسة الجماليات .

ونلخص هنا رؤية لنا نشرناها فى مجلة الآداب بطنطا سنة ١٩٨٢ ، عن تقسيم الموضوع الجمالى إلى مكونات ثلاثة ، ومن خلالها حددنا دور علم النفس كما يلى :

١ – **المكون الأول :** وهو العمل الفنى الخارجى كالشعر ، واللوحة الفنية ، والمقطوعة الموسيقية . وهذه المكونات تخضع للنقاد وأصحاب الأدب والفن . خاصة فى تحديد الشروط المؤهلة لها للاندراج فى الأعمال الفنية أو الأدبية .

٢ – **المكون الثانى :** وهو الجمال فى ذاته باعتباره فكرًا أو قيمة عليا مجردة يندرج فى دائرة الميتافزيقا .

٣ – **المكون الثالث** : الإحساس بالجمال ، إدراكه ، مشاعر المتعة والسرور الناتجة عن إدراكه . كل هذا يمثل موضوعًا أساسيًا لعلم النفس (عبد السلام الشيخ ١٩٨٢ ، ص ١٦٤). ويتفق كل هذا مع تقسيم Wolman 1973 إلى: جماليات عقلانية ، وجماليات إمبريقية ، ومع تقسيم Gore 1993 P. 34 الجماليات إلى : أ – ما يتعلق بالجماليات التأملية، وب – ما يتعلق بفلسفة الفن ، وجـ – ما يتعلق بالتذوق الجمالى أو الاستجابة الجمالية ، وهى موضوعات أساسية لعلم النفس . ويبدو هذا التقسيم وكأنه مشروع لدى علماء النفس التجريبيين ، حيث ميز بيرلين، وهو من أكبر علماء النفس الجماليين ، الجماليات إلى :

أ – جماليات تأملية : وهى مبحث فلسفى خالص .

ب – جماليات إمبريقية : وهى مبحث سيكولوجى خالص (Berlyne , 1973, P. 11)

ثانيًا – بداية العلاقة بين علم النفس والتذوق الجمالى :

بالطبع هنا أقصد علم النفس الذى ينشد المنهج العلمى فى العلوم الفيزيائية والبيولوجية ، ولم يكن من السهل تطبيق المنهج التجريبى السيكولوجى على التذوق الجمالى حيث ووجه بكثير من المعوقات منها :

١ – أنه بالرغم من ما قدم لتحديد التذوق الجمالى والجمال، إلا أن مفهوم التذوق الجمالى لم يزل يخالطه كثير من الخلط والغموض. ومع هذا ظهرت محاولات جاهدت بقوة لفك غموض هذا المصطلح، وأظن، كما سوف أوضح، أننا قد وصلنا حاليًا إلى تعريف معقول لهذا المصطلح من خلال معلومات تجريبية جمعناها، كما يحدث فى العلوم الفيزيائية، بدلاً من التسرع بطرح مفهوم إجرائى يعتمد على منطقنا وتصوراتنا النظرية .

٢ – إن إدخال التجريب فى هذا المجال يحتاج إلى عقلية متفتحة تتقبل الفشل المتكرر والمتوقع ، مع القدرة على التحمل وإعادة المحاولة .

٣ - إن كثيراً من أصحاب السلطة ومن الفلاسفة والمفكرين والمثقفين يقفون أحياناً موقف الإحباط حينما يؤكدون على أن الجمال أو الفن لا يفسر ولا يدرس لأنه يحس فقط ، وإذا ما حاولنا دراسته وتفسيره زال الإحساس به ، وعلى رأس هؤلاء فيلسوف وناقد ذائع الصيت هو بيندتو كروتشى ، كما أنه ليس من السهل أن يتقبل الناس أسلوباً جديداً يفسر التذوق الجمالى ، وينعكس بالتالى على تفسير الجمال والفن بشكل يخالف ما اتفق عليه المفكرون منذ كتاب أرسطو الأول عن الشعر وحتى عصرنا هذا .

٤ - كل هذا كان ولم يزل يمثل معوقات قوية أمام المحاولات العلمية والتجريبية لفهم التذوق الجمالى . بل أن عيوباً عديدة ظهرت فى تصميمات ونواتج هذه البحوث العلمية الأولى مما زاد من العوائق أمامها . ومن هذه العيوب :

أ - أن تصميمات البحوث فى هذا المجال (لطبيعة مفهومه الصعب الغامض) عادة ما يكتشف بها نواحى نقص قوية مؤثرة .

ب - أن نواتجها فى هذه الفترة سلبية كانت أو إيجابية لا يمكنها أن تفسر أو أن يكون لها دور فى تفسير السلوك الواقعى لتذوقنا للأعمال الفنية المتكاملة سمعية كانت أو مرئية . كل هذه الشروط ساهمت فى تحجيم خطوات البحث العلمى السيكولوجى للتذوق الجمالى ، ويمكن تقسيم بداية العلاقة بين علم النفس والتذوق الجمالى إلى مرحلتين :

١ - المرحلة التمهيدية (الطموحة) :

دارت اهتمامات البحوث الأولى لعلم النفس عن التذوق الجمالى حول إمكانية إخضاعه للدراسة العلمية :

أ - بالرغم من أنها تمثل أولى هذه المراحل إلا أنها مثلت درجة عليا من الطموح، حيث ظهر فيها فخنر عام ١٨٧٦، وفونت ١٨٧٤ بألمانيا، وحاولا دراسة مدى

إحساسنا بالسرور أو الاستمتاع من مثيرات حسية محددة ولكنهما انحصرا فى دائرة الإحساس أكثر من دراسة التذوق الجمالى . وبعد هذه الفترة بحوالى ٣٠ سنة ظهر أول كتاب فى هذا النطاق ، وأخذ عنوانًا طموحًا جداً وربما لم يتكرر بعد تحت عنوان Experimental Psychology of Beauty، وقد ظهر عام ١٩١٢، وأعيد نشره عام ١٩٦٢ London Methuen لعالم نفسى بريطانى هو Valentine C. .

ب – مرحلة البداية :

ونقصد بها الفترة التى ظهرت فيها المحاولات الأولى لعلماء النفس لتطبيق المنهج العلمى على التذوق الجمالى ، وكان الفكر السائد آنذاك أن العمل الجمالى لا يمكن تحليله إلى عناصره بينما مقتضيات المنهج العلمى تتطلب هذا التحليل ، ومن هنا طرح العلماء السؤال التالى : هل يمكن تحليل العمل الفنى أو الجمالى إلى عناصره ؟ وهل يمكن لكل عنصر من هذه العناصر أن يستثير استجابة جمالية وهو منعزل عن الكل الذى ينتمى إليه ؟ مثل نغمة من شوكة رنانة منعزلة عن مقطوعة موسيقية – أو خط أو زوايا – أو إيقاع كلمات صماء بدون معنى ... إلخ .

ومن هنا اهتمت بحوث هذه الفترة بالإجابة على التساؤل السابق ، وأكدت فعلاً أن هذه العناصر يمكن أن تثير استجابة جمالية .

ويمكن تقسيم هذه الفئة من البحوث إلى أربع فئات كما يلى :

أ – بحوث درست العناصر منعزلة .

ب – بحوث درست العناصر متفاعلة لقياس التذوق .

جـ – بحوث درست العناصر متفاعلة لدراسة الحساسية أو القدرة الجمالية .

د – بحوث درست اتساق التذوق الجمالى .

أ - دراسات استخدمت عناصر جمالية منعزلة عن الشكل :

من هذه الدراسات دراسة رويلية ، وتوصل من بحثه الذى أجراء سنة ١٩١٢ على (١٥) سيدة حول تذوق أصوات لفظية إلى أن حرف مثل (u) كما يُنطق فى كلمة (Mud) كان أقل الأصوات شيوعًا من حيث التفضيل ، بينما حرف مثل (A) كان أكثر شيوعًا فى التفضيل كما فى كلمة (Father) .

كما أن الحروف (الصوتية) : L → M → N أكثر تفضيلاً، بينما الأقل تفضيلاً كانت على التوالى G → D → K . وقد انتهت دراسات أخرى إلى نفس النتيجة مثل فالنتين سنة ١٩١٢ .

كما أجريت دراسات أخرى انتهت إلى أن الفقرات ذات المقاطع الطويلة والأكثر عددًا تثير الحزن والحزم أكثر من ذات المقاطع القصيرة والأقل عددًا فهى تثير الفرح والبهجة ، ومن هذه الدراسات Kate Hevner .

وقام فالنتين سنة ١٩١٤ باستخدام شوكة رنانة ، أو مترونوم ، لتقديم نغمات منعزلة إلى عدد كبير من المستمعين من مختلف الأعمار الزمنية والمستويات التعليمية والاجتماعية والمتخصصين فى الموسيقى وغير المتخصصين ، واتضح أنها تستثير فيهم مشاعر جمالية .

وقد قام بنفس الإجراء العالم (جون فولى) سنة ١٩٤٠ ، كما استخدمه جيلفورد بعد ذلك بعشر سنوات تقريبًا مع مزيد من الضبط التجريبى ، وقاس مشاعر الأفراد المستثارة نتيجة لسماع هذه النغمات ، وكان من نتائجه أنه كلما زاد تردد النغمة كثيرًا كلما زادت مشاعر السرور الوجدانية المستثارة نتيجة سماعها . وقد تأكدت نفس النتيجة فى دراسة Vande Geer Et Al. سنة ١٩٦٠ ، وماكس شون Schon سنة ١٩٤٠ ، وهو من رواد قياس مدى حساسية الأفراد للاستماع لنغمة موسيقية منعزلة كالشدة والتردد.

كما أكدت دراسة Robbins سنة ١٩٦٨ وقد أجريت على (١٠١) طالبًا، ودراسة Garling سنة ١٩٧٣ ، على أن الخطوط والزوايا ... إلخ . تستثير عند المتلقين استجابات جمالية (ممدوح ، ص ٦) . أما برينتون سنة ١٩٦٢ فقد توصل إلى مجرد سماع قصيدة شعر يمكن أن يستثير استجابة وجدانية جمالية ، ولكنه طبق دراسته على متخصصين فقط .

ما تنتهى إليه هذه الفقرة ما يلى :

أ - أن العنصر الجمالى المنعزل عن العمل الفنى أو الجمالى يمكن أن يستثير فينا مشاعر جمالية . وقد انبثقت عن هذه النقطة نقطتين :

١ - بالرغم من أن العنصر الجمالى يستثير فينا مشاعر جمالية ، إلا أنها لا يمكن أن تساوى المشاعر المستثارة من العمل الجمالى ككل .

٢ - أدى هذا إلى إعادة النظر فى تعريف التذوق الجمالى - وهو التعريف الذى قدمناه فى بحوثنا ١٩٧١ - ١٩٨٢ (الشيخ) .

ب - الانتهاء إلى بعض النتائج التى أصبحت مستقرة الآن ، مثل أن ارتفاع التردد يستثير استجابة السرور ، وأن النطق الصوتى لبعض الحروف يستثير سروراً أكثر من النطق الصوتى لحروف أخرى ، كما ظهر ما يسمى القطاع الذهبى ، ويعنى أننا إذا سألنا الناس أن يقسموا خطًا طبقًا لأفضل تقسيم لديهم فإن تقسيمهم لخط مثل أ - - - - - ب سيكون كما يلى أ - - - ب - - - جـ - - - حيث أن ب جـ = ٦٢٪ من أ جـ .

ب - بحوث درست العناصر الجمالية متفاعلة مع الكل لقياس التذوق:

تركز اعتراض العلماء على تصميمات البحوث التى عزلت العناصر الجمالية ، حيث بالرغم من أنها قد تستثير استجابة جمالية ، إلا أننا لا يمكن أن نسلم بأن الاستجابة الجمالية الصادرة لهذا العنصر منعزلاً هى نفس الاستجابة التى تصدر له وهو داخل فى الكل الذى ينتمى إليه .

ومن هنا اتجه البحث السيكولوجى إلى دراسة التذوق الجمالى لعنصر أو لمتغير جمالى فى حالة متفاعلة مع الموضوع الجمالى الذى ينتمى إليه ، مع اتخاذ الضبط التجريبى اللازم ، ويقتضى هذا بالطبع تثبيت كل المتغيرات الأخرى المكونة للعمل الجمالى أو الفنى ، ما عدا المتغير الذى ندرسه ونتحكم فيه بالرفع أو الخفض ، وهكذا ظهرت مجموعة أخرى من البحوث فى المجالات الفنية المتعددة ، خاصة التذوق الجمالى للموسيقى والفن التشكيلى والشعر .

ففى مجال الموسيقى كانت محاولات علماء مشهورين منهم Schoen، وفارانسوث، ثم هفنر كيت Hevner Kate (١٩٣٤ – ١٩٣٧) ، حيث تم إعداد مقطوعات موسيقية وتقدم كل مقطوعة كما هى ، فيما عدا تعديل كمى فى بعض متغيرات المقطوعة ، كالرتم والهارمونى والميلودى ، واتضح أن تباين أى من هذه المتغيرات مع ثبات المقطوعة الموسيقية يؤدى إلى تباين التذوق الجمالى أو المشاعر الوجدانية المثارة بواسطة تلك المقطوعة .

وتكررت هذه الدراسات ولم تزل حتى الآن ، ولعل من أهم نتائجها أنه بالرغم من أن استجابة المتذوقين للعمل الفنى تكون استجابة كلية إلا أن أى تغير فى الخصائص الجمالية فى العمل الفنى ينعكس فى تغيير فى المشاعر الوجدانية أو التذوق الجمالى لهذا العمل .

ومن بين النتائج التى انتهت إليها تلك الدراسات أن خفض تيمبو (السرعة) المقطوعة يزيد من ارتباطها بمشاعر الحزن ، بينما رفع هذه السرعة يرتبط بمشاعر السعادة والنشاط .

وهذه النتيجة تتفق إلى حد كبير مع رأى كثير من النقاد وفلاسفة الجمال والمتذوقين، إلا أن علم النفس لم يتوقف عند هذه النقطة بل استمر فى دراستها بأساليب أكثر دقة، وانتهى حاليًا إلى نتائج جديدة تمامًا كما سنرى فى نهاية المحاضرة .

جـ - استخدام تلك العناصر فى تفاعلها مع الكل لقياس الجمالية كقدرة الحساسية والجمال :

ويفرق أصحاب هذا التوجه بين ما يسمى بالتذوق الجمالى والتفضيل الجمالى والحكم الجمالى والحساسية الجمالية .

وكما أشرنا فسوف نعرض لهذه المصطلحات فيما بعد ، غير أننا هنا نركز على مصطلح ركز أصحاب هذه التوجه عليه وهو الحساسية الجمالية ، ويشير هذا المصطلح عندهم إلى مدى اتفاق استجابة المتذوق لموضوع فنى مع المحكات الفنية المحددة لهذا الموضوع أو مع استجابات وأحكام المتخصصين ، وكانت تقدم موضوعات فنية مثل لوحة أو مقطوعات موسيقية أصلية ثم تقدم صوراً منها لنرى مدى قدرة الفرد على التمييز بينها ، أو ماذا يفضل منها ، أو نستخدم موضوعات فنية ونأخذ عليها أحكام لمتخصصين ، وتطورت هذه الدراسات إلى قياس قدرات الأفراد على التمييز بين الألوان المتداخلة أؤ الهارمونى أو الميلودى أو التردد ... إلخ .

وواضح أن هذه الأمور تقيس قدرة الفرد على التمييز بين المثيرات أو مدى فهمه أو معرفته لمحكات النقد الفنى والأدبى ... إلخ .

ولا يمكن بالطبع اتخاذ مقياس حدة السمع فى التمييز بين الخصائص الصوتية ، أو حدة النظر فى التمييز بين الألوان ، مؤشراً لاستجابة تذوق فنى .

ولم يزل بعض الباحثين فى مصر يدرس الحساسية الجمالية باعتبارها تذوقًا جماليًا مما أحدث كثيراً من الخلط ، بينما انتبه العلماء فى الخارج إلى هذا الأمر ، وأصبحت دراسة الحساسية الجمالية – كما فى مفهومنا – تعنى دراسة للقدرات الفنية، ومن أوائل هذه الدراسات دراسة Ven Kate Sware - 1973 فى دراسته للتذوق عن عينة متخصصة فى مقابل غير متخصصين للفنون التشكيلية، وقاس لدى العينتين الحساسية الجمالية ، وأكد أنه لم يقس تذوقًا جماليًا بل قدرة أو مهارة فنية (نشوى ، ص ٥٨) .

ما ننتهى إليه من الأجزاء السابقة ، أن العمل الفنى يمكن تجزئته إلى عناصره وأن أيًا من هذه العناصر منفرداً أو متفاعلاً مع الكل يمكن أن يستثير استجابة تذوق جمالى مما يمكننا من دراستها .

ولم يتوقف الأمر هنا ، بل أثيرت مشكلة أخرى ترى أن التذوق الجمالى غير ثابت وغير مستقر وأنه يتغير بتغير الأفراد وداخل نفس الفرد ، وكانت الإجابة أن الفروق الفردية أمر مسلم به فى علم النفس ويخضع للتجريب ، وقالوا أن التذوق الجمالى لا يخضع لنظام محدد ، وكان لابد للعلماء أن يتأكدوا مما إذا كان التذوق الجمالى رغم تبايناته داخل الفرد يخضع لنسق معين منظم أم هو عشوائى بلا نظام ، ومن هنا كانت البحوث التالية :

د - بحوث درست اتساق التذوق الجمالى :

من البحوث الأولى فى هذا المجال بحث ديور سنة ١٩٢٨، وقد استخدم فيه اختبار مايير/سيشور لقياس أحكام الأفراد المتذوقين على موضوعات من الفنون التشكيلية ، وحلل النتائج وانتهى إلى وجود عامل عام يؤكد اتساق تذوق الفنون التشكيلية ، وبعده جاء بحث آخر لراليه Ralee سنة ١٩٣٩ ، والذى قاس فيه استجابات التذوق عند عينات كبيرة من طلاب الجامعة وحللها إحصائياً وعاملياً ، وانتهى إلى وجود عامل عام يعكس نوعاً من اتساق استجابات المفحوصين للموسيقى ، وتبعه بحث كارلين ونج عام ١٩٤١، والذى درس استجابات الأفراد للموسيقى وحللها عاملياً، وانتهى إلى وجود ثلاثة عوامل تنظم اتساق الاستحابات للموسيقى وهذه العوامل هى :

١ - عامل يفسر الذاكرة السمعية للموسيقى .

٢ - عامل يفسر قدرة الفرد على تمييز المقامات .

٣ - عامل يفسر قدرة الفرد على تمييز ارتفاعات النغمات .

وواضح هنا أن ما قاسه كارلين هو قدرة موسيقية ، وانقسمت إلى ثلاث عوامل ، ولكنها على أية حال تدعم احتمالية اتساق إدراكنا للموسيقى .

وفى نفس هذه الفترة سنة ١٩٤١ ظهر عالم قوى فى هذا المضمار هو بيكفورد Pickford ، استخدم ١٦ مقطوعة موسيقية كلاسيكية - رومانسية، وطلب من المستمعين

أن يذكروا ما تستثيره المقطوعة التى يسمعونها من مشاعر وجدانية كالسرور والجاذبية ... إلخ . وطبق التحليل العاملى وانتهى إلى عامل عام يستوعب كل المشاعر الوجدانية التى يتصف بها تذوق الموسيقى ، وسماه بيكفورد عامل عام يعكس درجة كبيرة من الاتساق ، وأن هذا العامل مستقل عن الذكاء وعن العمر وعن الجنس وعن القومية .

ومن خلال دراسات متعددة قام بها أيزنك على عينات من المتذوقين للفنون المرئية وللموسيقى وللشعر خلال الفترة من ١٩٤٠ - ١٩٥٣ انتهى إلى وجود عاملين فى التذوق الجمالى :

١ - الأول يقيس التذوق الجيد (السليم) .   ٢ - تفضيل البسيط - المعقد .

وقد انتهى Schroeder فى دراسته على (١٦٠٠) مفحوصاً إلى عاملين متماثلين ، واتضح أيضاً أن هذه العوامل مستقلة عن الذكاء والعمر والجنس ..... إلخ .

وبعد هذا أصبحت الدراسات السيكولوجية أكثر نضجًا وتأكدت من إمكانية دراسة التذوق الجمال علمياً وتجريبياً ، وتوفر لديها مقدار معقول من إمكانيات التعامل علميا مع التذوق الجمالى ، وبدأت تتجه إلى محاولات الكشف عن الشروط المسئولة عن تشكيل التذوق الجمالى .

بعض الشروط المسئولة عن تشكيل التذوق الجمالى :

طرحت الدراسات السابقة مشكلات متعددة تدور حول الشروط الظاهرة المسئولة عن تشكيل التذوق الجمالى وكان من أهمها بالطبع :

١ - التخصص - عدم التخصص .

٢ - متغيرات شخصية المتذوق والمتلقى .

٣ - خصائص المثير أو الموضوع الجمالى .

١ – الفرق بين تذوق المتخصصين / وغير المتخصصين :

* فى بحث ميران إيفانز سنة ١٩٤٠ (على ١٧ شخصًا فى الشعر و٢١ شخصًا غير متخصصين) للحكم بالتفضيل على مجموعة من قصائد الشعر انتهى إلى أن غير المتخصصين أكثر تطرفا سلبًا وإيجابًا من المتخصصين فى تذوقهم للشعر .

* وفى سنة ١٩٤٠ أوضحت دراسات بيكفورد Pickford أن أحكام المتخصصين فى الموسيقى تركز على النغمة والتوتر المثار بينما ركز غير المتخصصين على الإيقاع والناحية الوجدانية المثارة .

* وتأكدت الفروق بين المتخصصين وغير المتخصصين فى دراسات أخرى عديدة منها دراسة Brantly سنة ١٩٤٢ ، حيث أكدت على وجود فروق واضحة بين تذوق المتخصصين وغير المتخصصين .

* وفى سنة ١٩٥٤ انتهى برينتون إلى أن المتخصصين يفضلون الشعر المعقد بينما غير المتخصصين يفضلون الشعر البسيط .

* وفى دراسة سويشاك سنة ١٩٥٥ اتضح أن دراسة الموسيقى والتمرن عليها يؤدى إلى مزيد من اتقان أحكام التذوق حول المقطوعة الموسيقية ، كما تميل تفضيلات المتخصصين نحو الأكثر تعقيداً ، كما فى دراسة إيزنك وكاسل سنة ١٩٧٠ (عبد السلام الشيخ ، ص ٤٠، ١٩٧٧) ، ويبدو أن هذا الاتفاق ليس تذوقًا حقيقيًا بقدر ما هو حكم عقلى قائم على تعلم اجتماعى .

وفى دراسات متعددة لنا ١٩٨٢ – ١٩٩٦ انتهينا إلى أن غير المتخصصين أقدر على التذوق الفنى للموضوعات الفنية عن المتخصصين من حيث أن التذوق يتضمن الاستمتاع بالموضوع الجمالى وضعف الوعى ونقص القلق ، حيث أن المتخصص عادة يظل مرتفع الوعى ومرتفع القلق .

كما انتهى عبد المنعم شحاتة إلى أن التخصص له دور واضح فى تشكيل استجابات للمثيرات الجمالية ، حيث كان طلاب اللغة العربية أكثر تفضيلاً للشعر من عينة طلاب كلية الآداب غير المتخصصين .

وتوالت الدراسات بعد هذا حول الحساسية أو القدرة الجمالية وأكدت أن المتخصصين أعلى من غير المتخصصين .

وفى عام ١٩٩٤ قام أيزنك بقياس التذوق الجمالى عند متخصصين فى مقابل غير متخصصين ، وقاس استجاباتهم لعاملين من عوامل التذوق : الأول وهو ما يسمى عند أيزنك "التذوق السليم" ، والثانى عامل قطبى وهو تفضيل البسيط - المعقد ، ولم يجد للتخصص تأثيراً على التذوق هنا ، أو كما يرى أيزنك لم يكن للمعارف الفنية عند المتخصصين دور فى رفع تذوقهم عن غير المتخصصين .

وتكررت هذه النتيجة فى دراسة تحت إشرافنا لعبد المريد قاسم ، جامعة حلوان سنة ١٩٩٨ ، على ٢٧٠ طالبًا جامعيًا ، ولم يجد فرقًا دالاً بين المتخصصين وغير المتخصصين فى التقييم الجمالى للبيئة .

وحينما نقارن هذه النتيجة بنتائج سابقة ولاحقة - سوف نعرض لها - تؤكد أن التذوق الجمالى للمثيرات الجمالية أسوأ فى حالة قياس الشعور الجمالى عند المتخصصين عنه عند غير المتخصصين .

بينما فى حالة قياس القدرة الفنية يرتفع تذوق المتخصصين ، وهذا يعنى أن غير المتخصص حينما يتذوق موضوعًا جماليًا يُستثار تلقائيًا ويندمج فى العمل الفنى أو الجمالى مع خفض قوى للوعى والمنطق وسيطرة المخ الأيمن ، ويوجه الوعى إلى الداخل مما يرفع المشاعر الوجدانية الجمالية ، بينما يرتفع المنطق والوعى عند المتخصصين ، فمن الطبيعى أن الناقد أو الفنان حينما يدرس عملاً يضع هذا العمل تحت محاولة النقد ويطبق عليه ولو بشكل ضمنى شروط العمل الفنى ، ومن هنا يسيطر المخ الأيسر ويرتفع الوعى والمنطق لديه ، وتنخفض المشاعر الوجدانية ، وينخفض بالتالى التذوق الجمالى ، بينما يرتفع تذوق المتخصصين حينما نقيس التذوق كقدرة - حيث نجد أن مواقف التحصيل والخبرة السابقة تنمى هذه المهار لديه .

بينما يتماثل الجميع حينما يكون الموضوع الجمالى هو البيئة أو مثيرات ليست فنية ، كما فى دراسة أيزنك ودراسة عبد المريد بجامعة حلوان .

٢ – متغيرات شخصية :

وخاصة الانبساطية / الانطوائية ، الجنس ، الذكاء ، العمر الزمنى ، الإيقاع الشخصى ، التطرف ، الاستكشاف البصرى .

وبالنسبة للانبساطية/ الانطوائية، فقد انتهت معظم الدراسات إلى أن الانبساطيين ينجذبون إلى المسارح ويفضلون الموضوعات الجمالية البسيطة، بعكس الانطوائيين حيث يميلون إلى معارض الفنون وإلى الموضوعات الأكثر تعقيداً ، وذلك كما فى دراسة أيزنك ، ودراسات لنا متعددة ، بينما نجد دراسات أخرى انتهت إلى نتائج مختلفة حيث انتهى Martin - 1974 إلى أن الانبساطيين يفضلون الأكثر تركيباً والأكثر تعقيداً .

بالنسبة للجنس : انتهت معظم البحوث إلى أن الإناث يملن إلى تنوق الصور المألوفة بينما يميل الذكور إلى الصور الحديثة ، وأن الأولاد يميلون للمركب أكثر من الإناث ، ومن هذه البحوث (Hog 1965. Moyls. Bernard - 1972. 1969. بالهند سنة Taiswal ١٩٧٢) .

وانتهت بحوث أخرى إلى عدم وجود تباين دال بين الجنسين ، بما يتطلب مراجعة هذه النتائج .

بالنسبة للعمر الزمنى : توصلت معظم البحوث من ١٩٦٠ – ١٩٨٠ إلى أن مدة النظر إلى الموضوع الجمالى تزداد كلما زاد العمر الزمنى ، ويميل الأولاد إلى الموضوعات الجمالية المعقدة أكثر من الإناث قبل مرحلة الجامعة ، ولكن ينعكس الوضع بعد الجامعة ، ومن هذه البحوث Kessen & Munsenger 1964 وبحث Cust 1972 .

بينما انتهت بحوث أخرى إلى نتائج عكسية زادت الأمور غموضاً ، منها بحث Schmidt ، ١٩٦٨ ، حيث اتضح أنه مع زيادة العمر عامة يزداد الميل للمعقد ، وبحوث أخرى انتهت إلى أن زيادة الميل للمعقد تزداد حتى سن ١٩ سنة ، وبعد هذا لا تظهر علاقة ، وذلك مثل دراسة Hutt سنة ١٩٦٠ .

وبالنسبة للذكاء : فقد تناولته فى تلك الفترة بحوث قليلة ركزت على شكل واحد من أشكال التذوق الجمالى ، وعامة فقد انتهت معظمها إلى أنه مع زيادة الذكاء والعمر الزمنى يزداد الميل لتذوق المعقد ، واتضح فى بحث آخر أن المرتفعين على الذكاء يميلون إلى المثيرات الأكثر تعقيداً ، مثل بحث Goldman 1972 ، وانتهت بحوث أخرى إلى نتيجة مخالفة حيث اتضح أنه لا توجد علاقة بين التذوق الجمالى والذكاء، مثل بحث Brian - 1972، ولم تزل هذه النتيجة هى المستقرة حتى وقتنا هذا حيث أكدتها دراسات عديدة كما سنرى .

٣ – خصائص المثير :

دفع التفاوت السابق فى نتائج الدراسات التى عرضناها كثيراً من الباحثين إلى البحث عن العوامل المسئولة عن هذا التفاوت أو التعارض، وبدلاً من البحث عنه فى عدم الاتفاق على مفهوم محدد للتذوق الجمالى ، فقد بحثوا عنه فى خصائص المثير ، وهى ما نطلق عليه العناصر الجمالية ، وظهر فى هذا المجال رائد مشهور هو Berlyne ، الذى ركز على خصائص المثير الجمالى وتأثيرها على التذوق الجمالى . وكان من أهم هذه الخصائص :

الحداثة ، الألفة ، الدهشة ، المفارقة ... إلخ . ثم خصائص أخرى مثل التماثل أو التجانس ، التداخل أو المواراة .

وبدأت تظهر دراسات تناولت خاصيات جديدة وهامة كانت سبباً وراء تطور دراسات التذوق، مثل دراسات أيزنك ١٩٦٢ لخاصية التعقيد ، ودراسات بيرخوف حول القيمة الإستطيقية للموضوع الجمالى، ومحاولته التى تنص على أن القيمة الإستطيقية للموضوع = النظام ÷ التعقيد ، وجاء أيزنك وعدل المعادلة إلى أن القيمة الإستطيقية = O x C أى التعقيد × النظام . ودفع ذلك بيرلين إلى إدخال مصطلحين جديدين هما : السرور ، التشويق . فليس كل مشوق سار . ومن خلال تجارب عديدة أجراها بيرلين انتهى إلى أن الأشكال المعقدة (المركبة) تكونت أكثر تشويقاً لكنها أقل إحداثاً للسرور، كما إنها تنتج حثًا Arousal مرتفعاً كما يقاس بـ بجهاز رسم المخ الكهربائى EEG .

واضح إذن أن دراسات التذوق دخلت مرحلة جديدة أقرب إلى العلم الفيزيائي (عبد السلام الشيخ ، ١٩٧٧ ، ص ٤٩) ، كما ظهر متغير لم يدرس من قبل وهو عدد مرات العرض .

ففي تلك الفترة قامت باحثة درست على يد بيرلين هي **S. Seagert** سنة ١٩٧٠ ، حيث أجرت تجارب متعددة انتهت منها إلى أن تفضيل المعقد يزداد مع زيادة مدة العرض بعكس البسيط ، وقد اتضح عامة من دراسات متعددة لبيرلين وغيره في تلك الفترة أن الخصائص الموضوعية للموضوع الجمالي ليست هي التي تحدد استجابة التذوق الجمالي ، بل تلك الخصائص كما يدركها المتلقي (نلاحظ هنا أهمية الإدراك في تفسير التذوق كما سيظهر عند إرنهايم ، والتمثيل الداخلي لخصائص المثير التي ستنتهي إلى اختزال التذوق في مجرد المشاعر الجمالية) .

أدخل بيرلين بعد هذا متغيرات تساعد في تشكيل استجابة التذوق من نظرية المعلومات ، لعل من أهمها عدم التأكد ، وعدم التوقع ، والفائض .

ويذكرنا هذا بنظرية أ.د/ سويف وما يسمى خلالها التهيؤ الذهني . وعامة اتضح أن العلاقة بين عدم التأكد والتفضيل علاقة لا نمطية ، وغالبًا منحنية ، وأحيانًا تأخذ أكثر من قمة ، وما يهمنا هنا ليس النتائج بقدر ما يهمنا ما ظهر من متغيرات أخرى ومناهج أسهمت في تطبيق الدراسة العلمية على التذوق الجمالي .

بالنسبة للأرضية القومية والثقافة فقد اتضح أن الأرضية التي يقدم عليها الموضوع الجمالي تحدد درجة تذوقه .

بينما من خلال دراسات عديدة مثل دراسة **1972 - Abwear Mah. & Lichild** من خلال المقارنة بين باكستانيين وأمريكيين ، وفي دراسة لسويف / وأيزنك سنة ١٩٧٢ ، انتهت كل هذه البحوث إلى أن تباين القوميات ليس له تأثير دال على التذوق الجمالي ، غير أن هذه البحوث السابقة في هذا المجال لم تحدد شكل العلاقة بين خصائص المثير وعدم التأكد ... إلخ . والتذوق الجمالي ، وكذلك متغيرات الشخصية مما دعا إلى إعادة النظر في مفهوم التذوق الجمالي ومناهج وتصميمات البحوث الخاصة بدراسته : بما انتهى إلى نتائج هامة نعرض لها في الجزء التالي تحت عنوان : الوضع الراهن .

رابعاً - الوضع الراهن لعلم النفس والتذوق الجمالى :

أولاً - فى الوطن العربى :

بمراجعة الدراسات فى هذا المجال يتضح لنا أن أفضل بحوث جديدة فى هذا المجال كانت فى مصر واليابان ، بينما ظلت البحوث فى الخارج داخل النطاق الذى أجريت فيه البحوث السابق ذكرها واعتمدت على استنباطات ذاتية .

من هنا نبدأ عرضنا من داخل مصر ثم نمتد إلى الخارج لمجرد المقارنة حتى نعرف وضعنا :

أهم دراسات الإستطيقا (فى علم النفس) :

١٩٦٠ ← سويف ١٩٦٠ ، ١٩٦٣ حلمى المليجى .

١٩٧٠ ← عبد الستار إبراهيم (مقالة)، وسويف ← أيزنك ١٩٧١+١٩٧٢، الشيخ ١٩٧١ و١٩٧٨ ، أبو حطب ١٩٧٣ .

١٩٨٠ ← عبد السلام الشيخ مقالتين ١٩٨٢ ، وعبد السلام الشيخ (١٩٨٢،١٩٨٨، ٤١) بحوث ، مصرى حنورة ، دراستان ١٩٨٥ ، وشاكر عبد الحميد وآخرون ١٩٨٩ ، A.B.C. أحمد إسماعيل ١٩٨٩ ، الفخرانى ١٩٨٩ ، أحمد عياد ١٩٨٩ ، سويف ١٩٨٣ ، فرغلى فراج ١٩٨٤ ، حنورة ١٩٨٥ ، شاكر ١٩٨٩ .

١٩٩٠ ← عبد السلام الشيخ مقالة ١٩٩٨ ، الصباغ ١٩٩٨ مقالة ، ١٩٩٤-١٩٩٥ بحث أحمد إسماعل ١٩٩٣ ، إلهام خليل ١٩٩٦-١٩٩٧ ، رمضان وإلهام خليل ١٩٩٧ ، مجدة كشكى ٩٧ ، شاكر عبد الحميد ١٩٩٧ ، أمنية الشناوى ١٩٩٩ ، نشوى زكى ١٩٩٩ ، عبد المريد قاسم ١٩٩٩ ، أحمد الشركسى ٢٠٠٠ .

ثانياً – تقسيم الدراسات الراهنة إلى :

القسم الأول : وهى دراسات شائعة وتعتبر تقليدية وتنقسم إلى :

أ – دراسات لم تزل تركز على الحساسية الجمالية .

ب – بحوث بدأت تبحث عن أسباب التذوق داخل المتلقى نفسه .

جـ – بحوث بدأت تبحث عن أسباب التذوق فى خصائص العمل الجماعى .

القسم الثانى : وهى دراسات تمثل نقلة قوة منهجية فى تناول علم النفس للتذوق الجمالى وتنقسم إلى :

أ – دراسات تناولت التذوق الجمالى باعتباره ينمو مع نمو الإنسان .

ب – دراسات ركزت على المشاعر الجمالية وينبثق منها :

١ – دراسات بحثت عن المشاعر الجمالية فى مواقف غير جمالية .

٢ – محركات العمل الفنى ودوره فى تشكيل التذوق .

القسم الأول :

أ – دراسات اهتمت بدراسة الحساسية الإستطيقية على أنها تذوق جمالى ، بينما نرى دراستها كقدرة – كما سبق عرضه – وبالتالى تخرج عن دائرة التذوق الجمالى .

ب – دراسات اهتمت بالبحث عن أسباب التذوق الجمالى داخل المتلقى ، ومنها دراسات سبق عرضها اهتمت بعلاقة التفضيل الجمالى بمتغيرات الشخصية وانتهت ولم تزل تنته إلى نتائج متضاربة ، ومن هذه المتغيرات الانبساطية ، التصلب ، التطرف ، الميل للمعقد ، ... إلخ . وقد عرف العلماء هذه المتغيرات غير أن دراستها وجهت نظر العلماء إلى متغيرات أخرى فى الشخصية تمتد لخصائص أساسية لكل الأعمال الفنية مرئية ومسموعة ، مثل ما يسمى

الإيقـاع الشـخـصى ، حـيث اتضح أن الإيقـاع - بمعنى توالى الحـركـات والسكنات بشكل منتظم ومتوازن - يعمر ما فى هذا الكون (كان أول عالم نفس ذكـر هـذا هو جـبـرائيل تارد فى كـتـاب The Imitation ، وقـبله من الفلاسفة فيثاغورث) .

ثم اتضح أن كل أداءات هذا الكون تخضع لإيقاع يمكن التنبؤ به وتوقعه بدرجة ما، وأن إرادتنا أيضًا يحكمها إيقاع محدد يفرق بين شخص وآخر ، يطلق عليـه الإيقـاع الشـخـصى Personal Tempo ، وأشـار إليـه أيزنك وسويف ، ودراسة أمبيريقا Rimoldi مـن جنوب أفريقيا ، ومشيما جيرو Mishima Jiro من اليابان ، وقمنا بدراسة أمبيريقيا ١٩٧١ تحت إشراف أ.د. سويف وانتهينا إلى أن لكل منا إيقاع عام يختص به وينظم كل أداءاتنا الخارجية : عقلية ولفظية وإدراكية حركية وحركته ..... إلخ .

واتضح أن له علاقة ما بإيقاع الشعر المفضل ، غير أن هذه العلاقة ليست نمطية دائمًا تخضع لمستوى الاستثارة عند الفرد .

وظهرت بحوث متعددة بعد هذا أكدت فاعلية الإيقاع الشخصى فى تشكيل تذوقنا الجمالى للموضوعات الجميلة ، خاصة البحوث التى درست العلاقة بين سرعة الإيقاعات الشخصية وإيقاعاتنا البيولوجية والقلب و درجة التوصيل الكهربى للجلد GSR .... إلخ .

جـ - دراسات اهتمت بالبحث عن أسباب التذوق فى خصائص العمل الجمالى ، وهى امتداد لدراسات سابقة حول خصائص العمل الفنى الذى يشكل التذوق الجمالى للموضوع ، وكان من أهم تلك الخصائص خاصية التعقيد - البساطة ، غير أن الدراسات الأحدث سنة ١٩٧٠ عند بيرلين طورت هذه الخصائص ، خاصة ما ارتبط منها بمستويات الحث وبما أظهر مزيدًا من تفاصيل تلك الخصائص - مثل التماثل أو التجانس ، المفارقة ، الإغلاق ، الموازاة ، التوازن ، التركيب .

وظهرت مجموعة من البحوث السيكولوجية اهتمت بدراسة أثر خصائص المثير على التذوق الجمالى ، وقد حاولت ربط تذوق هذه الخصائص بمتغيرات الشخصية ، فالانطوائيون يفضلون التعقيد فى المثيرات سمعية أو بصرية ، والديجماطيقيون (العقائديون) يفضلون البسيط ، وكذلك الانبساطيون . ونضرب أمثلة لذلك :

اختلفت النتائج حول متغيرات الشخصية التى ترتبط بتذوق خصائص الموضوع الجمالى ومن أهمها خاصية التعقيد ، حيث اتضح أن التعقيد من موضوع لآخر كما أن المتذوق لا يستجيب لخصائص المثير كما هو موضوعياً بل كما يتمثلها ذاتياً ، فقد يكون الموضوع الجمالى معقداً موضوعياً ولكن المتذوق يدركه بسيطًا .... إلخ .

وللتخلص من هذا الخلط والاختلاف حاول بيرلين D. Berlyne ربط التذوق الجمالى لهذه الخصائص بمتغيرات نظرية المعلومات ومن هنا :

١ - رأى أن محكات التعقيد يجب أن تتحدد فى إطار مقدار المعلومة التى يرسلها الموضوع الجمالى إلى المتلقى .

٢ - تعددت بالتالى أنواع التعقيد ، كما عرضنا لها فى مقياس لنا وصفناه بهدف التوصل إلى تحديد موضوعى لما قدمه بيرلين .

٣ - ظلت الخصائص الموضوعية موضع شك ولم تحسم مشكلة التذوق الجمالى حتى فى حالة ارتباطها بمتغيرات الشخصية ، فالانبساطى قد يفضل شكلاً من التعقيد ويرفض شكلاً آخر . (كما سنذكر فى اختبارنا) .

التعقيد الذاتى بالموضوع الجمالى قد يكون مفضلاً لدى شخص غير متخصص بينما قد يصبح بسيطًا عند المتخصصين بالمقارنة بموضوع آخر أبسط موضوعاً .

واتجهت بحوث إمبريقية إلى أننا خاصة فى مجال التذوق الجمالى لا نستجيب للموضوع الجمالى كما هو خارج الذات دائمًا وإنما كنا نتمثله ونحيله إلى ذاتنا، بمعنى كنا ندركه ، وأن إدراكه لموضوع التذوق يكون فى أعلى قدراته على تحوير الموضوع الخارجى بما يتسق وبناء الذات ، فالعصا قد تصبح حصاناً فى تذوق الطفل لها، ولكنها فى سلوك أدائى لحل مشكلة يصعب إدراكها حصاناً .

وربما من أجل هذا ومن أجل أمور أخرى سنتناولها كان الإدراك الجمالى متعالياً وأكثر تحرراً أو حرية وأكثر تعبيراً - المهم هنا أننا لا نستجيب للموضوع الجمالى إلا كما ندركه - وبالتالى فإن الاعتماد على الخصائص الموضوعية للمثير الجمالى لتفسير التذوق الجمالى أمراً غير دقيق ، بل لابد من النظر إلى هذه الخصائص بعد تمثلنا إدراكيًا لها .

ولحل هذه المشكلة ظهرت مجموعة من العلماء حاولت تحويل ما هو موضوعى إلى ما هو ذاتى فى ضوء مقتضيات العلم ، وكان على رأس هؤلاء العالم الكندى "بيرلين"، ومن خلال دراسات عديدة انتهى إلى أن هذه الخصائص تتحول فى إدراكاتنا إلى متغيرات ذاتية يمكن قياسها هى :

١ - تستثير توقعاتنا .

٢ - تستثير حثنا أو حفزنا .

فالموضوع الجمالى المدرك بقدر ما يستثير فينا من توقع بقدر ما يكون بسيطاً وبقدر ما يستثير فينا من حث بقدر ما يكون معقداً .

ومن هنا ركز على دراسة التذوق الجمالى لخصائص المثير فى ضوء ما تستثيره من حث ومن توقع وألفه ، وانتهى إلى علاقة منحنية، بمعنى أنه كلما كان الحث المستثار بسيطاً كلما انخفض التذوق ، ومع زيادة الحث يزداد التذوق عند درجة وسطى ويبدأ ينخفض . وفى ضوء هذا استطاع بيرلين تفسير أثر الألفة وعدد مرات التكرار على التذوق الجمالى ، وكيف أن زيادة عرض موضوع جمالى معين قد يزيد من تذوقنا الجمالى له ؟ بينما قد يقلل من تذوقنا الجمالى لموضوع آخر ، ومن هنا فسر كيف أن تكرار سماعنا للموسيقى الكلاسيكية أو لموسيقى عبد الوهاب وأغانى أم كلثوم يزيد من تذوقنا الجمالى له ، بينما تكرار سماعنا لموسيقى وأغانى شعبية قد يقلل من تذوقنا له (ورغم ما فى هذا التفسير من منطقية مقبولة ، إلا أننا قد ننتهى فى نهاية المحاضرة إلى تفسير أكثر دقة حتى فى ضوء العلاقة المنحنية) .

القسم الثانى :

ويمكن اعتبار هذا الجزء هو المستخرجات النهائية لتطور الدراسات السيكولوجية السابقة حتى وقتنا هذا ، وتركز هذه المستخرجات فى :

١ - تحديد مفهوم أكثر وضوحاً وإجرائية للتذوق الجمالى .

٢ - الاعتماد على الحواس والإدراك الحسى فى التمييز بين أشكال التذوق الجمالى مثال : التمييز بين التذوق السمعى والتذوق البصرى .

٣ - اكتشاف ظواهر جديدة تتطلب مدخلاً جديداً للبحث السيكولوجى فى هذا المجال ، مثال : استبعاد تفسيرات التذوق التى تعتمد على نتائج تجريبية وقوانين علمية .

٤ - تقديم تفسيرات علمية لظواهر غير مفسرة، مثل ما يحدث للمشتركين فى حفلات زار ورقصات ، وعبدة شيطان ، والتعاطى (خاصة الكحوليات) مع الغناء والموسيقى فى الأندية والأفراح ، بينما يندر التعاطى فى الحفلات الأوبرالية . ونبدأ بعرض سريع لتطور بحوث القسم الثانى وينقسم إلى :

أ - دراسات تناولت التذوق الجمالى باعتباره مشكلة من مشكلات السلوك تنمو مع نمو الإنسان :

حينما حاول بعض الباحثين دراسة نمو التذوق الجمالى مع نمو الطفل لم يكن هذا بالأمر السهل ، لسبب بسيط وهو أن التذوق الجمالى مفهوم لا يشير إلى سلوك محدد كالذكاء أو الإحساس يمكن تتبع مراحل نموه ، فهل هو تذوق المرئيات ويرتبط بنمو القدرة البصرية ؟ أم يرتبط فقط بالمشاعر الوجدانية الناتجة من رؤية مدركات بصرية، وما هى المرئيات التى يمكن أن تعتبر المشاعر المثارة من رؤيتها تذوقاً جمالياً- وتحت أى شروط ؟ أو هو تذوق السمعيات أو تذوق للحسيات ... إلخ . وهنا طغى غموض المفهوم على السطح بما فرض على الباحثين ضرورة تحديده ، وقد تناولنا هذا الأمر فى مؤلفات عديدة لنا وانتهينا إلى أن التذوق الجمالى هو تلك المشاعر الوجدانية التى تثار داخلنا لأى سبب من الأسباب أو بغض النظر عن السبب المسئول عن إثارتها،

ويشترط فقط ألا تكون هذه المشاعر مرتبطة بحل مشكلة أو بإشباع دافع على مستوى الوعى ، وبأن يعبر عنها لفظيًا بتلك الألفاظ المتفق عليها اجتماعيًا أنها تشير إلى مشاعر حب أو تذوق جمالى ، كما انتهينا إلى حصرها من خلال بحوث قد نعرض لها فى هذه المحاضرة .

وبالرغم من غموض مفهوم التذوق ، فقد ظهرت محاولات لتتبع بعض صوره مثل التذوق الموسيقى ، ونمو إدراك الصوت، والتمييز بين خصائص الإيقاع السمعى والمقام والتردد ، ومن أشهر الباحثين فى هذا المجال **Hargreaves** وله مؤلفات بهذا الاسم (علم نفس النمو الموسيقى **The Development Psychology of Music**) .

ومعظم المجلات التى ظهرت فى هذا المجال لم تظهر إلا بعد سنة ١٩٨٠، ولم تهتم أساسًا بما يسمى النمو الموسيقى ، بل اهتمت بعملية تعليم الموسيقى للأطفال مثل مجلة **Brit. Mus. Educ.** والتى ظهرت سنة ١٩٨٤، ولم يستطع كتاب **Hargreaves** التكلم عن شيء اسمه نمو التذوق الموسيقى، بل ركز على موضوعات مثل: استجابات الأطفال للصوت ، ونمو الأغنية ، ونمو المهارات الإيقاعية والمهارات الميلودية ، وتمييز المقامات (واضح أنها جميعًا تدرس نمو القدرة الموسيقية أو الفنية أو الاستعدادات الموسيقية وليس لها علاقة بالتذوق)، ثم عرض لأثر البيئة والممارسة والتدريب على التذوق .

ومع هذا فأهم ما أفاد به هذا التوجه ضرورة تحديد مفهوم التذوق الجمالى وهو ما طرحناه فى أول هذه الفقرة .

ب – دراسات ركزت على التذوق الجمالى باعتباره المشاعر الجمالية :

دراسات تناولت التذوق الجمالى باعتباره مجرد المشاعر الوجدانية :

أى أن التذوق الجمالى هو ذلك الشعور الذى نشعر به (من أى موضوع معين – ونعبر عنه بتلك التعبيرات المتعارف عليها لغويًا على إنها تعبير عن التذوق الجمالى ، بحيث لا يكون ورائه منفعة أو حل مشكلة أو إشباع دافع ، إلا فى ظروف نادرة كما سنرى) .

والدراسات التى تناولت المشاعر الجمالية نادرة وقليلة ، منها دراسة أحمد الشركى (٢٠٠٠) ، ودراسات لنا قمنا فيها ببناء مقياس يتكون من (٢٣) بنداً تعبر عن تلك المشاعر . واستخدم هذا المقياس فى دراسات عديدة ، وانتهى إلى نتائج جديدة إلى حد ما ، وأثار مشكلات متعددة ، خاصة حول المواقف غير الجمالية التى تستثير هذه المشاعر ، وانبثق عن هذه الدراسات فئتين :

الفئة الأولى : دراسات ركزت على استثارة التذوق الجمالى فى مجالات غير جمالية :

أدى تحديد مفهوم التذوق فى إطار المشاعر إلى تطوير وسائل ومقاييس البحث مما ساعد على ظهور مشكلات جديدة تحتاج إلى تفسير علمى ، ولم تكن مطروحة من قبل ، ومن هذه المشكلات أن المشاعر التى نستثيرها متغيرات جمالية يمكن أيضاً أن تستثار فينا بمثيرات غير جمالية – فمشاعر السعادة والنشوة والاسترخاء ، ...... إلخ. يمكن أن تستثار فينا من خلال مواقف جمالية كالرقص وسماع الموسيقى ... إلخ. والزار ، وفى نفس الوقت يمكن أن تستثار من متغيرات غير جمالية مثل التأمل وصوت العصافير ورؤية الشروق والغروب ... إلخ . وبالتالى فإن التوصل إلى معرفة الشروط التى تتحكم فى هذه المشاعر تساعدنا على تفسير المواقف التى تظهر فيها والتى تختلف باختلاف نوع الحس (سمعى / بصرى) أكثر مما تختلف باختلاف الموقف أو موضوع التذوق ، أى بغض النظر عما إذا كانت هذه المواقف جمالية أو غير جمالية.

ومن هنا ظهرت مشكلات تحتاج إلى تفسير مثل :

١ – الفرق بين مشاعر التذوق للسمعيات وتذوق البصريات .

٢ – الأسباب التى تستثير تلك المشاعر فى مواقف التذوق السمعى والتى تستثيرها فى مواقف التذوق البصرى .

٣ – مشكلات تلازم الرقص والأغانى والتعاطى ، بينما ينفرد التذوق الأوبرالى بدون الحاجة إلى دعم آخر .

الفئة الثانية : دراسات على محاكاة العمل الفنى ودوره فى تشكيل التذوق الجمالى :

هنا معايير وضعها النقاد والفنانون يتم من خلالها الحكم على مدى دقة العمل الفنى وقدرته على استثارة المشاعر الجمالية ، من هذه المعايير : بحور الشعر ، والنوتة الموسيقية ، ومحكات الفن التشكيلى . فبقدر توفر هذه الشروط فى العمل الجمالى بقدر ما يمكنه من استثارة مشاعر التذوق الجمالى ، أم أن الموضوع قد يكون جميلاً بقدر ما يستثير من إحساس بالجمال بغض النظر عن مدى توفر محكات العمل الفنى؟ هذا السؤال لم تطرحه بحوث إلا فى بحث ماجستير لنا تحت إشراف (سويف ١٩٧١)، وفى بحث (نشوى حبيب) تحت إشرافنا ١٩٩٩ . وفى البحث الأخير طبقنا اختبار النقد الفنى مع قياس التذوق الجمالى للوحة فنية ، وانتهينا إلى نتائج منها أن الذين يعتمدون على محكات النقد الفنى فى حكمهم الجمالى على الصورة لا يختلفون فى شدة المشاعر الجمالية عن الذين لا يعتمدون على هذه المحكات ، كما أن شدة التذوق الجمالى للصور المرئية غير الحية (بسيطة أو معقدة) يكون أكثر ارتفاعًا عند المتخصصين عنه عند غير المتخصصين ، بينما فى تنوق الأشكال الحية (بسيطة – معقدة) لم يكن ثمة فرق فى التنوق الجمالى بينهما . إن التذوق الجمالى لجميع خصائص الموضوع الجمالى كان مماثلاً عند الذين يعتمدون على محكات التنوق الفنى والذين لا يعتمدون عليها ، ربما لأن الاعتماد على محكات النقد الفنى تستخدم فقط عند النقد وليس فى مرحلة التذوق ، كما أنه يستخدم فقط على المستوى اللفظى .

خامساً – وجهة نظر لنا وخاتمة :

ويتضمن محاولاتنا لتفسير المشكلات المطروحة نختتم بها هذه المحاضرة .

١ – فيما يختص بالفرق بين مشاعر التذوق للمرئيات وبينها للسمعيات أجرينا دراسات عديدة طبقنا فيها اختبار المشاعر وحللنا معطياتها عامليًا ، وانتهينا إلى :

أ - فى حالة التذوق البصرى :

تجمعت كل المشاعر الـ ٢٣ المسجلة بالاختبار والتى تعبر عن التذوق فى عامل واحد ولم يظهر غيره (عامل عام لتذوق المرئيات). وهذا يعنى أننا حينما نتذوق موضوعًا مرئيًا نمر بكل المشاعر المكونة لهذا العامل، ولا يتم هذا تلقائيًا - كما سنرى - بل يحتاج إلى تدريب وتنمية هذا النوع من التذوق ، حيث أن المشاعر إما أن تظهر كلها أو لا تظهر .

وهناك أسباب يمكن افتراضها وراء هذا التذوق، تقوم على عملية تشريط وتجريد، فمثلاً حينما نرى مدركات مرئية مشبعة أو ترتبط بحل مشكلة ، فإن أى عنصر من عناصر هذه المدركات إذا أدركناه بمعزل عنها فى مواقف أخرى فإنه يستثير فينا استجابة سعادة وإشباع بدون أن نعرف لها سببًا بما يجعلها تذوقًا جماليًا .

وهكذا تتجمع هذه العناصر عبر خبرات الفرد والأجيال لتكون لنا تلك الإبداعات الجمالية، ثم تأتى عملية الاندماج فيها، وخفض القلق نتيجة لهذا الاندماج كما سنرى ، مما يحدث تعزيزًا لهذه الاستجابة .

ويختلف التذوق البصرى عن التذوق السمعى حتى لنفس المثير، فحركة الرياح مثلاً مع حركة ورق الأشجار قد تستثير استجابة تذوق جمالى بصرى تختلف عما تستثيره فى مجال السمع ، ففى الأخير قد تعدل فى النبض والضغط ... إلخ. ولا يحدث هذا التذوق البصرى .

ب - فى حالة التذوق السمعى :

انتهينا إلى :

١ - ظهور عامل عام يستوعب المشاعر الـ (٢٣)، وبالتالى يعنى أننا حينما نستمع إلى صوت نعشقه فإننا نندمج فيه وننسى ما حولنا من هموم وأحزان ، ونشعر كأننا نطير فى السماء (طبقًا لـ ٢٣ شعورًا) . معنى هذا أن وعينا ينتقل من الخارج إلى الداخل حيث نسترجع ذكرياتنا وهمومنا كما هى مخزنة داخلنا ، حيث تتجرد من علائقها الواقعية وتصبح أقل حدة وأيسر حلاً (على المستوى الداخلى)، وهو ما أسماه فلاسفة الجمال الاغتسال من الهموم أو التطهير . ومن هنا فإن دموعنا التى تتساقط أثناء التذوق الجمالى تكون أقل حدة عن تلك التى تتساقط فى الواقع .

والمشاعر الوجدانية السلبية التى نعيشها فى الواقع تكون أقل حدة حينما نعيشها مع التذوق ، ويساعد على كل هذا سيطرة المخ الأيمن أثناء التذوق الجمالى ، كما أكدت كل البحوث .

٢ – كان هناك عامل قطبى فى مجال تذوق السمعيات ليس له مثيل فى تذوق المرئيات يحتوى على مشاعر البطانة الوجدانية فقط ، كالسرور أو النشوة والسعادة ، لكنه لم يتضمن مشاعر لخفض الوعى ، كالطيران أو نسيان الذات أو العالم ، ومن هنا نرى أن فى تذوق السمعيات نوعين من التذوق :

الأول – العامل العام الذى ننسى فيه العالم ، وينعكس الوعى داخلنا ويخلق بداخلنا ما نحب من مثيرات ومواقف متعددة ، ومن هنا كان التعالى عن الواقع .

وللوصول إلى هذا العامل نحتاج إلى تدريب (ربما هذا ما يحدث عند الصوفيين).

الثانى – هو مجرد الإحساس بالسعادة أو السرور من سماع الموسيقى التى نعشقها، وهو ما يحدث لنا فى حياتنا العادية فى كل المواقف التى يمكن أن نستمع فيها إلى كل هذه الموسيقى، ولا نصل إلى مستوى فقدان الوعى بالخارج وتمركزه بالداخل.

٣ – لماذا تؤدى الموسيقى بنا إلى إصدار استجابات مثل :

أ – حركات إيقاعية تنتهى بالرقص .

ب – انعكاس الوعى إلى الداخل وضعفه وارتباطه بالخارج .

جـ – خفض الضغط والتوتر .

د – المشاعر المكونة للتذوق الجمالى (٢٣ شعوراً) .

حينما نستمع إلى موسيقى نعشقها نشعر بالمشاعر السابق ذكرها، مع شعورنا بنسيان العالم، والحاجة إلى الرقص، وتغيرات بيولوجية: تغيرات فى النبض، وضغط الدم النفسى، وقد تأكدت هذه الحقائق فى دراسات متعددة منذ عام ١٩٥٠ عند

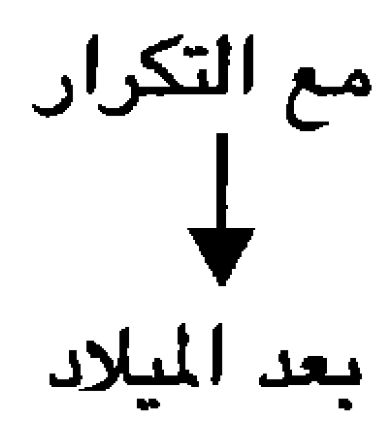
جورج أوليورن حتى ١٩٩٩ عند أيواناجا كاكوتا باليابان ، حيث اتضح أن التغيرات فى الخصائص الهارمونية والإيقاعية وسرعات الموسيقى التى يسمعها الفرد تؤدى إلى تغيرات مماثلة فى الاستجابات الفسيولوجية عامة ، مما يوحى أن تذوق الموسيقى له أساس بيولوجى .

ويحتمل أن يتكون هذا الأساس أو يدعم عند الجنين داخل الرحم ، فمن المعروف أن الجهاز العصبى عند الجنين ابتداء من الشهر السادس يمكن أن يخزن معلومات ، وفى ضوء هذا يمكن البحث عن تشريط استجابات الجنين عملية الإشباع الصادرة عن الأم ، وما يصاحبها من إيقاعات ، وتحيط بكل جسد الجنين وسمعه .

حيث يسبح الجنين فى السائل الأمينى فى داخل الرحم ، وكل حركات جسم الأم من تنفس وضغط الدم ونبضات القلب ، تحمل الغذاء إلى الجنين وتنعكس فى شكل موجات إيقاعية فى هذا السائل كمثيرات شرطية تحيط جسم الجنين، وتصل إلى أذنيه، وقد تؤثر فى العصب البصرى ، ويعقبها وصول الغذاء إلى الجنين كمثير طبيعى يستثير استجابة الإشباع لديه (على المستوى الحسى) .

يتكرر هذا أثناء وجود الجنين بالرحم ، وهنا يحدث التشريط كما يلى :

مثير شرطى (أ)	مثير غير شرطى (ب)	الاستجابة (جـ)
إيقاع السائل الأمينى حول جسم الجنين فى الجهاز السمعى مع تأثير على الصبر	الغذاء من الأم	إحساس بالإشباع والطمأنينة



أ - أى جزئية من موقف (أ) كالإيقاع السمعى ⟵ إحساس بالشبع مع استدعاء كل الإحساسات، المصاحبة الأولى

معنى هذا أن استجاباتنا للموسيقى ليست متعلمة . وقد أكدت هذا دراسات متعددة مثل دراسات (Shut & Gabriel, 1981) ، (Hargreaves) ، ويؤكد هذا الأساس الجنينى استجابة بعض الحيوانات للموسيقى .

ويؤكد صدق التصور التشريطى داخل الجنين أن استجابتنا للموسيقى وما يصاحبها من استجابة بصرية ولمسية يصاحبها أيضاً حركات إيقاعية ، مثل حركات الجنين داخل الرحم، حيث تصل أحياناً إلى الرقص وإحساس بالرعدة أو الرجفة، تأكد هذا أيضاً فى دراسات تتبعت استجابات المولود الجديد لنغمات موسيقية . منها دراسة (Perns, 65)، عزف فيها نغمات ذات ترددات متباينة لعينات من الأطفال بعد الميلاد مباشرة (١-٥ أيام) أنتجت حركات إيقاعية وجسمانية وتغيرات فى نبضات القلب .

ولكن ما الذى يجعل الموسيقى تخفض القلق والوعى وتدفعه إلى الانعكاس داخلياً؟ حينما يرتفع الوعى إلى أقصى درجاته لحل مشكلة معقدة ربما يكون مشتتاً ، ودرجة معقولة من الاستماع للموسيقى تخفض الوعى بما يلغى التشتت وتساعد على التركيز . وخفض الوعى يحدث تلقائياً حيث أن الموسيقى تؤدى إلى سيطرة المخ الأيمن ، إلا أن هذا الخفض لا يؤدى بالضرورة إلى الانفصال عن الواقع ، وحينما يندمج الفرد فى الاستماع إلى الموسيقى طبقاً للعامل العام الذى سبق الإشارة إليه تظهر لديه بعض مشاعر العامل منها : الرقص ، ونسيان العالم ، وانعكاس الوعى للداخل .

٤ - آثار الموسيقى على سلوكنا :

* الاستماع إلى الموسيقى يمتعنا عادة ، ولكن هذه المتعة يمكن أن تكون متعة مرغوبة ويمكن أن تكون متعة قاتلة كما يلى :

أ - فقد تكون الموسيقى هادئة تنتج فى أجسامنا حركات هادئة تساعدنا على الاسترخاء ، وربما تركيز الانتباه على هذا الوضع المشبع ، وقد تساعدنا على تجميع انتباهنا ، وتركيزه على حل مشكلة لا تحتاج إلى مجهود عقلى كبير ، وتحت هذا الموقف (مع توفر شروط سيكولوجية مهمة) يمكن استخدامها بشكل علمى فى العلاج وليس كما يحدث الآن بشكل عشوائى .

ب - قد تكون الموسيقى حادة وسريعة ، وطبقًا لقوانين التشريط السابقة نجد أنفسنا مدفوعين لإصدار حركات سريعة قد تكون رقصًا، سواء فى حفلات الزار أو حفل دينى أو رقص الديسكو ، ومع زيادة إيقاع نغمات لموسيقى تزداد سرعة إيقاعاتنا الراقصة خاصة إذا تخطت المدى من ٧٠-١٠٠ دقة كل دقيقة ، وهو المدى المفضل لجميع المستمعين، حيث يتماثل مع مدى دقات قلب الإنسان (Iawanaga, 1995) . إذا تخطت الموسيقى هذا المدى ، فإن مساقط المنبهات الحسية على المسارات العصبية تكون أسرع منها ، مما يؤدى إلى تراكمات عصبية فى هذه المسارات ربما تحدث كفًا بالمخ ، فيبدأ الانفصال عن الخارج وانعكاس الوعي إلى الداخل . تعطى هذه التراكمات من المنبهات معانى لا وجود لها فى الواقع ، ومن هنا قد نسمع ونرى ونحس بمنبهات لا وجود لها واقعيًا ، ومعنى هذا سيطرة المخ الأيمن (يؤكد هذا تجربة فرتهيمر المشهورة عن الإدراك باستخدام المصباحين - مع إعادة تفسيرها من وجهة نظرنا) (١) .

وهكذا ينفصل وعينا عن واقع خارجي محبط ومربك إلى واقع داخلى يتعامل مع مخزوننا بالجهاز العصبى فيشكل كل خبراتنا الماضية والحاضرة والمستقبلية بشكل أقرب إلى الهلاوس المقنعة ، التى يمكن الخروج منها ، وكأننا خارج الزمان والمكان .

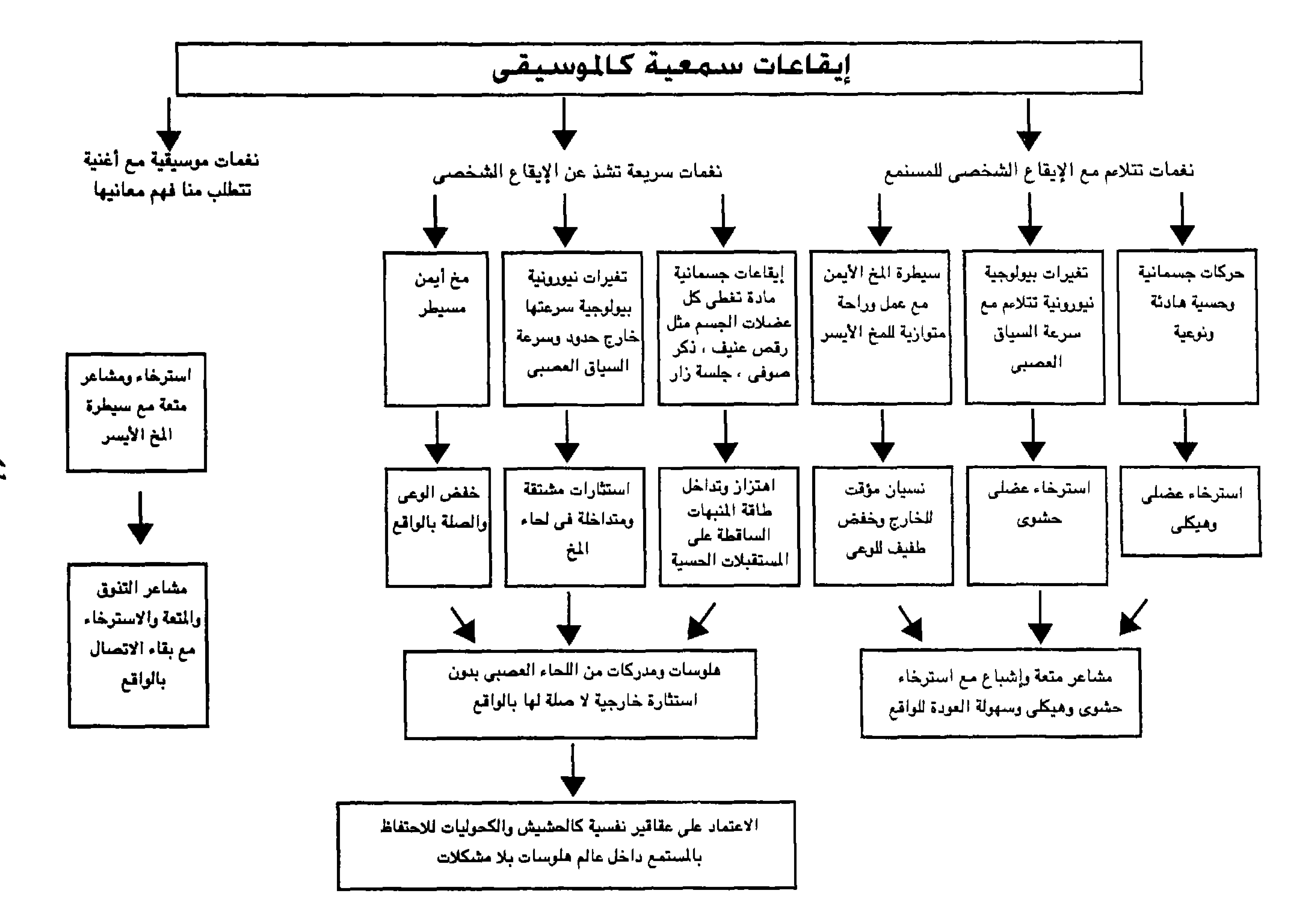
إحيانًا لا نستطيع الوصول إلى ما نريد من انفصال عن الواقع ، أو نخاف من العودة إليه ، فنستعين بالتعاطي، ومن هنا التلازم بين التعاطى والرقص والموسيقى، أو أن نستعين بمزيد من الرقص لفصل الوعى عن الخارج والتمسك بعالمنا الداخلى، نسيطر على تشكيله بلا إرادة ، وإنما كما نحب بحرية لا متناهية .

---

(١) حيث نرى أنها تفسر كيف يتكون أمام إدراكنا مثيرات مخالفة للواقع تمامًا - تحت شروط معينة - وبالتالى أقرب إلى الهلاوس أو الضلالات ، إلا أنها تزول بزوال هذه الشروط المصطنعة والتى تتحكم فيها .

وبالطبع يكون الإنســان هنا فى أقـصى درجـات القـابليـة للإيحـاء بما يمكن أن نستـغلها فى العلاج ، أو أن تسـتغل فى الانحـراف بالسلوك . وإذا مـا أردنا أن يكون استمـتاعنا بالموسيقى استمتاعًا متوازنًا لننسى فى الواقع ونتجه إلى الداخل ، على أن تكون القدرة على العودة إلى الواقع ميسرة لنا، لابد أن يسيطر المخ الأيسر مع الأيمن، وهنا ندخل مـثيراً مع الموسـيقى لإعمال المخ الأيسر ، وربما هذا ما يحـدث فى الغناء الأوبرالى حيث يظل يعـمل المخ الأيسـر والأيمن ، ويظل الواقع قـريبًـا منـا وفى مـتناول أيدينا، وبالتالى لا نحتاج إلى دعم يفصلنا عن الواقع كالتعاطى .

وفى ضوء هذا يمكن تفسير كثيراً من الظواهر كما فى الرسم التالى :


إيقاعات سمعية كالموسيقى
نغمات تتلاءم مع الإيقاع الشخصى للمستمع
نغمات سريعة تشذ عن الإيقاع الشخصى
نغمات موسيقية مع أغنية تتطلب منا فهم معانيها
حركات جسمانية وحسية هادئة ونوعية
تغيرات بيولوجية نيورونية تتلاءم مع سرعة السياق العصبى
سيطرة المخ الأيمن مع عمل وراحة متوازية للمخ الأيسر
إيقاعات جسمانية مادة تغطى كل عضلات الجسم مثل رقص عنيف ، ذكر صوفى ، جلسة زار
تغيرات نيورونية بيولوجية سرعتها خارج حدود وسرعة السياق العصبى
مخ أيمن مسيطر
استرخاء عضلى وهيكلى
استرخاء عضلى حشوى
نسيان مؤقت للخارج وخفض طفيف للوعى
اهتزاز وتداخل طاقة المنبهات الساقطة على المستقبلات الحسية
استثارات مشتقة ومتداخلة فى لحاء المخ
خفض الوعى والصلة بالواقع
مشاعر متعة وإشباع مع استرخاء حشوى وهيكلى وسهولة العودة للواقع
هلوسات ومدركات من اللحاء العصبى بدون استثارة خارجية لا صلة لها بالواقع
الاعتماد على عقاقير نفسية كالحشيش والكحوليات للاحتفاظ بالمستمع داخل عالم هلوسات بلا مشكلات
استرخاء ومشاعر متعة مع سيطرة المخ الأيسر
مشاعر التنوق والمتعة والاسترخاء مع بقاء الاتصال بالواقع

بعض المراجع

١ - عبد السلام الشيخ (١٩٨٢) . الإستطيقا بين التأمل الفلسفى والتجريب السيكولوجى ، مجلة كلية الآداب - طنطا .

2 - Berlyne, D. E (1974). Studies in The new Experimental Aesthetic, Steps toward an Objective Psychology of aesthetic appreiation. Washington: John Wiley & Sons.

3 - Marlindal, C. *et al* (1991). Aesthetic preference: Anamolus for Berlyna's, Psychological Theorpy Amer J. Psychology, 103 (1), 53-80.

4 - Susan, D. & Jojn J. (1991). Unity and The golden section rules for aesthetic choice ? Amer J. Psychology. 104 (2), P. 257-77.

5 - Sutherland, S. (1989). Macmillan Dictionary of Psychology. London: Macmillan press.

علم النفس والقانون

محيى الدين أحمد حسين

مقدمة :

إذا كان لنا أن نحدد خاصيتين واسمتين للعلم فى الآونة الحالية ، بغض النظر عن الخصائص الأخرى المتصلة بطبيعة العلم ومنهجه ، فإننا نتصور أنهما تتمثلان فى التخصص الدقيق من جانب ، وفى تكامل التخصصات من جانب آخر .

ولهاتين الخاصيتين منطق يوصل بينهما ، إذ ليس من الملائم - وقد أملت النظرة المتخصصة ضرورة التعامل مع عمق الرؤية - أن لا تتكاتف التخصصات المختلفة فى اتجاه تحقيق شمولية النظرة لتحقق العمق المنشود ، وذلك عن طريق تضمين آفاق من الاهتمام متشعبة فى جذورها ومتعددة فى أبعادها ، وبالتالى لا يتحقق عمق الرؤية على حساب شمولية النظرة .

وقد أثمرت حركة الاتصال والتواصل بين العلوم المختلفة بالفعل صوراً مختلفة من التدفق العلمى والتقنى الوثاب لم يكن لها مثيل فى عقود مضت ، ولنتأمل على سبيل المثال ثورة الطب الحديث فى تقنياته التشخيصية بوصفها نتاجًا لتعاون فريد بين مجالين علميين هما : الهندسة والطب ، ولنمعن النظر أيضًا فيما أثمرته علاقة الهندسة الوراثية بعلمى الزراعة والحيوان من إنجازات كان التفكير فيها فيما مضى يعد ضربًا من الخيال العلمى .

ولم يكن علم النفس بتوجهه العلمى الحديث بعيداً عن ساحة التفاعل مع تخصصات أخرى كالصناعة والطب والإدارة والسياسة ، وكان من ثمرة هذا التفاعل نواتج علمية كان لها مردودها الإيجابى على كل طرف من طرفى التفاعل .

(Strobe & de Wit, 1996, Parker & Mastead, 1996)

التعاون بين تخصصى علم النفس والقانون :

ومن الطبيعى أن يبرز فى هذا الإطار تساؤل يختص بحدود العلاقة القائمة بين تخصصين هما : علم النفس والقانون ، مقدر لهما أن يكونا وثيقى الصلة ؛ هذا التساؤل هو : هل العلاقة – وبالأحرى التفاعل بينهما – تصل إلى مستوى المأمول أم هى دون ذلك ؟

إن هذا التساؤل يثير أمراً شديد الأهمية ، إذ يشكل ضبط السلوك مرمى متماثلاً لكلا التخصصين ، كما أن القانون يرتكز فى عملياته وصيغه الإجرائية على كثير من الجوانب التى تعد شاغلاً أساسياً لعلماء النفس ، مثل: الإدراك ، والذاكرة ، والتعرف ، وكيفية اتخاذ القرار الملائم ، وأساليب التفكير ، وما إلى ذلك من جوانب أخرى سوف يأتى الحديث عن بعضها فى سياق تال .

وبالإضافة إلى هذا يجد علماء النفس فى الصيغ والإجراءات القانونية مجالاً حيًا يمتحنون فيه مفاهيمهم ويختبرون مدى صحة نظرياتهم ، هذا إلى جانب استلهام كثير من الممارسات القانونية فى تضمين أبعاد جديدة تدخل فى صلب الظواهر النفسية التى يخضعها علماء النفس للدراسة الإمبريقية المنظمة .. فهل البطء فى الإجراءات التنفيذية لحكم يصدر لصالح فرد أو ضده يضعف أو لا يضعف فاعلية القرار وجدواه ؟ وهل يتباين أثر تغليظ العقوبة بتباين السياقات الاجتماعية (مثل السياق الشمولى أو السياق الديموقراطى أو الفوضوى أو الموسوم بالالتزام) ؟ أم أن لهذه الآلية وضعها المتماثل فى كافة السياقات الاجتماعية المختلفة ؟ فمن الممكن لأسئلة كهذه وأخرى

غيرها أن تجد طريقها إلى الدراسة النفسية المنظمة بفعل استشراف خبرات الممارسة القانونية وملابساتها .

(Farrington, 1979, XIV)

ولكن على الرغم من أهمية هذه العلاقة بين التخصصين ، فلا يسعنا أمام مطالعة مشهد التفاعل بينهما الذى بدأ فى شكل محاولات بدائية مع أوائل القرن العشرين ، ومحاولات جادة نسبيًا فى الربع الأخير من القرن العشرين ، إلا القول بأن العلاقة بين التخصصين كانت ولازالت ضامرة ، رغم تسليم المتخصص فى المجالين بأهمية العلاقة وانعقاد الآمال عليها فى ملء مناطق التداخل التى لازالت رمادية اللون ، كما أنها تتطلب التعاون حتى لا تشوب الممارسة ارتجالية الحركة والتغريب .

ويقوم عدد من المبررات وراء هذا الضمور فى التعاون من أهمها :

أولاً – استقطاب علماء النفس لفترة طويلة فى دائرة الاهتمام بسيكولوجية الجريمة ، بمعنى آخر انتهاك القانون وإمكانات تحجيمه ، ورغم أن انتهاك القانون يعد شقًا أساسيًا فى مجال الاهتمام بالقانون ، إلى جانب التشريعات القانونية والإجراءات التنفيذية لهذه التشريعات ، فإنه يبقى أن مسألة انتهاك القانون تدخل بطبيعتها العامة فى دائرة الإصلاح الاجتماعى ، وما يتضمنه من مواجهة وقائية . ومن ثم فإن رجال القانون على استعداد نفسى لأن يتركوها لغيرهم دون أدنى اعتراض ، فى حين أن صياغة التشريعات القانونية وإجراءات تنفيذ القوانين المتمخضة عنها تدخل بالنسبة لرجال القانون فى صميم دورهم المباشر ؛ ومن ثم فإن التسليم من جانبهم بحتمية التضامن مع رجال تخصص آخر إزاء تشكيل معالم هذا الدور لا يمكن أن يتم بسهولة.. ولكى يتم هذا لابد من تحقيق مكاشفة عملية تتجلى من خلالها حاجة شديدة أو ملحة لكل طرف إلى الآخر . وهذه المكاشفة من جانب الطرفين لم تتحقق حتى الآن على النحو الذى يجعل كل طرف منهما واعيًا بما هو متاح فى جعبة الآخر من إسهامات تعينه على ممارسة دوره بفاعلية أقوى وأشد .

ثانيًا – لازال القانونيون، وحتى هذه اللحظة، يعتمدون فى تخصيب ممارساتهم – بقدر ما يتعلق الأمر بعلم النفس – على علم النفس الدارج ، الذى من المؤكد أن له تفسيرات مختلفة للسلوك عن علم النفس العلمى Scientific Psychology ، بما ينطوى عليه من إجراءات مقننة ودلالات إحصائية محسوبة .

وقد انعكس هذا الأمر على منهج التعامل بين أبناء التخصصين ، فبينما يتحرك علماء النفس العلميين وفقًا لمنطق الاحتمالات لحدوث السلوك ، كأن يقرروا على سبيل المثال حدوث السلوك عند مستوى إحصائى ٠,٠٥ أو ٠,٠١ أو ٠,٠٠١ ، يقيم القانونيون احتمالات السلوك على مستوى بديلين لا وسط بينهما : مذنب أو غير مذنب ، متورط أو غير نتورط ، واجب التحفظ عليه أو غير واجب .

كما يرجع التباين فى منهجى التخصصين إلى فلسفة العمل فى كل منهما : ففلسفة العمل عند القانونيين هى تحقيق الضبط الاجتماعى داخل المجتمع ، والسبيل إلى ذلك لديهم بنود القانون وإجراءاته التنفيذية ، بينما تتحدد فلسفة العمل فى مجال علم النفس فى وصف السلوك وتفسيره والتنبؤ به فى ظل أحكام الصيغ المنهجية المحددة للسلوك وملابسات حدوثه . وحتى عندما يرمى علماء النفس إلى ضبط السلوك والتحكم فيه من وحى الاعتبارات العملية القاضية بهذا ، يتحركون فى هذا بمنطق الاختلافات القائمة بين الأفراد وتفهم دواعيها .

ثالثًا – لا يزال القانونيون يمارسون بعض أدوارهم الواقعة فى نطاق العمليات القانونية من المنظور الخبرى وليس العلمى ، بمعنى آخر يؤسسون بعض إجراءاتهم على الموروث الخبرى من الأفكار والتصورات دون امتحان علمى لها . فقد تعود القانونيون على سبيل المثال الاعتماد على إرباك الخصم ، ومن ثم انتزاع الإدانة أو البراءة . هذا على الرغم مما كشفت عنه البحوث الحديثة من أن التراشق اللفظى ، وإن استطاع أن يشد انتباه الأفراد إلى بعض عناصر الواقعة المنظورة ، فهو غير كفيل بدحض حجة الخصم إذا ما كان متمرسًا على هذا النوع من الاحتدام اللفظى . بالإضافة إلى أن شحن جو المحكمة بالجيشان الانفعالى الذى قد يتأتى فى ظل تعامل

أطراف الخصومة بذات الآلية اللفظية مآله إضعاف دور الحجج المنطقية بالنسبة لكل من الطرفين ، وبالتالى فإنه قد يتحتم إنهاء الحكم فى الواقعة بقرائن وأدلة قد تكون زائفة فى بعض الأحيان، مثل اللجوء إلى جهاز كشف الكذب Lie detector ، أو العرض البوليسى للمتهمين Line-up ، وهى آليات لم تعد فوق مستوى الشبهات من منظور علم النفس العلمى .

رابعًا – أن المسئولية فيما يتصل بضمور التفاعل بين تخصصى القانون وعلم النفس ليست ملقاة على أكتاف القانونيين وحدهم ، فعلماء النفس مسئولون أيضًا جزئيًا عن هذا ، فلا يزال علم النفس الشرعى Forensic Psychology ، الذى يعد المتخصصين للإسهام المتبادل مع رجال القانون فى إطار اهتماماتهم المشتركة ، غائبًا عن خريطة إعداد الإخصائيين النفسيين سواء أكانوا على مستوى المرحلة الجامعية الأولى أم على مستوى الدراسات العليا . وهذا قصور محتم تلافيه إذا كان مقدراً لهذا التخصص أن يمارس دوره الفاعل فى اتجاه تفعيل الدور التشريعى والإجرائى لرجال القانون .

وجدير بالذكر أن هذا القصور – وإن كنا نطالعه بصورة أو أخرى فى السياق الأجنبى ، حيث لا نجد لهذا التخصص مكانًا إلا فى عدد محدود من الجامعات الأمريكية والغربية – يغيب تمامًا عن الخريطة التعليمية فى سياقنا المحلى .

وأمام هذا العجز البين فى إعداد الإخصائى النفسى الشرعى، لا يمكننا أن نعيب على القانونيين تباعدهم عنا ، وإن كنا نعيب عليهم عدم تدريس علم النفس فى كلياتهم ، وهذا أمر لا نملك معه إلا الدهشة والتعجب . وقد كان للمؤتمر السنوى الثانى الذى ينعقد سنويًا فى رحاب جامعة إكسفورد ، عن دور العلوم الاجتماعية فى إزكاء الحس القانونى ، فضل المبادرة فى التعبير عن الدهشة والتعجب (Moss, 1981, 24) .

وربما نجد فى الإشارة إلى التقرير الذى قدمه ديلفن ما يقيم الدليل على ما نقول، إذ ورد فى تقرير ديلفن ما يلى :

«أن ثمة فجوة قائمة بين البحث الأكاديمى المتصل بقوى العقل البشرى وإمكاناته والمطالب العملية الرئيسية للمحاكم. ويبدو أننا لم نصل بعد إلى المرحلة التى يتأتى فيها قبول البحوث النفسية على نطاق مقبول أو تكييف حقائقها لاحتياجات العملية القضائية على نحو يجعلها قادرة على إحداث تغييرات إجرائية " . (Delvin, 1976, p. 73)

وقد طرحت وجهات نظر مختلفة تبرر النغمة السلبية التى أنطوى عليها تقرير ديلفن ، وتدور وجهات النظر هذه حول كمون المشكلة فى أساسها وصلبها فى عدم تقدير ما أنطوى عليه مجال علم النفس من بحوث تتصل نتائجها بالعملية القانونية وملابساتها . لكن تبرير المشكلة القائمة شىء وقيام المشكلة شىء آخر .

وعمومًا فإنه نتيجة لهذين الأمرين تخلقت معضلة التواصل بين رجال القانون ورجال علم النفس ، فلدينا أخصائيون نفسيون غير واعين بالكثير الذى فى جعبتهم والذى يمكن إذا ما أحسنوا تقديمه أن يفتح أفاقًا واسعة أمام القانونيين إبان ممارسة أدوارهم ، ولدينا قانونيون لم يقيموا التواصل بين تخصصهم وعلم النفس الحديث ، إذ لا تزال حقائق علم النفس المتاحة لهم متوقفة – على أفضل تقدير – عند مستوى إسهامات أوائل القرن الماضى . ولا يحتاج الأمر إلى كثير عناء لإقامة الدليل على صحة وجهة نظرنا ، فيكفى المطالع لعلم الإجرام كما يقدم فى كليات الحقوق فى جامعاتنا – إذا كان على معرفة بعلم النفس الحديث – أن يتيقن مما نقول ، بل وأكثر من هذا ، فإن مضمون علم الإجرام فى معظم ما ينطوى عليه حرى أن يعود إلى أصحابه الحقيقيين وهم علماء النفس ، لكى يصوبوه ويقدموه بعد ذلك بمعرفتهم بوصفهم متخصصين فى المجال .

خارطة الاهتمام المعاصرة بعلاقة علم النفس بالقانون :

ألمحنا فى موضع سابق أن الربع الأخير من القرن الماضى قد شهد طفرة اهتمام واضحة ببحوث علم النفس والقانون ، أو ما يعرف الآن بعلم النفس الشرعى . وقد وجد

هذا الاهتمام دفعته القوية فى ثلاث مناطق فى العالم : الولايات المتحدة الأمريكية، وإنجلترا، وفرنسا . ويرجع هذا الاهتمام المكثف فى نطاق هذه الدول الثلاث إلى حرص هذه الدول على إضفاء الصبغة التطبيقية على بحوثها ودراساتها ومن مؤشرات هذا الاهتمام أن تأسست الجمعية الأمريكية لعلم النفس والقانون خلال عام ١٩٦٨ ، وانضوى فى عضويتها إخصائيون نفسيون ورجال قانون أيضًا. وفى بريطانيا خلال عام ١٩٧٧ - فى رحاب جمعية علم النفس البريطانية - تم إنشاء قسم لعلم النفس القانونى والجنائى ، كما انعقدت المؤتمرات السنوية منذ ذلك التاريخ فى جامعة إكسفورد وتحت رعاية مركز الدراسات الاجتماعية والقانونية فى ذات الجامعة ، مع الحرص على عقد حلقات النقاش بين الأكاديميين والممارسين النفسيين والقانونيين لتبادل وجهات النظر المدعمة للتعاون بين علم النفس والقانون .

ويعنى مركز البحوث الاجتماعية بكلية السوربون بجامعة باريس بفرنسا بهذه المسألة أيضًا ، بل إن اهتماماته بالبحوث النفسية والقانونية ذات الطبيعة العملية ، خاصة فيما يتصل بإجراءات المحاكم والعمليات التى تقضى بها طبيعة أعمالها ، من الأمور الباعثة على الدهشة لعين ألفت حقيقة مؤداها أن الأرض الأمريكية والإنجليزية هى أرض خصبة للبحوث النفسية الأكاديمية منها والتطبيقية .

وعمومًا قد انتظمت على أرض الاهتمام بالبحوث النفسية القانونية مجالات أساسية للدراسة يمكن حصر أهمها على النحو التالى :

١ - انتهاك القانون بوصفه موضوعًا تقليديًا استحدثت فيها توجهات جديدة .

٢ - دراسات تختص باتجاهات الأفراد حيال القانون .

٣ - دراسات تتصل بالتنشئة القانونية وحدود تغلغل القانون فى وجدان الأفراد .

٤ - دراسات تتصل بمسلمات الممارسة القانونية وأسسها .

٥ - دراسات تتصل بمدى اضطلاع القانون بدور وقائى من الجرائم .

٦ - المفاهيم الواجب تعديلها فى فكر القانونيين عند اضطلاعهم بأدوارهم المنوطة بهم .

٧ - القانون والرأى العام ، والقانون والإعلام .

٨ - علم النفس والتشريعات القانونية .

٩ - شهادة الشهود وحدود مصداقيتها .

١٠ - علم النفس فى قاعة المحكمة (نظام المحلفين ، سيكولوجية التداول واتخاذ القرار) .

١١ - علماء النفس بوصفهم شهود خبراء .

١٢ - السجون وحدود اضطلاعها بمهام الإصلاح والتأهيل .

١٣ - الدراسات المتعلقة بالضحايا والمجنى عليهم .

ومن الواضح أن هذه المجالات الثلاثة عشر منتظمة فى فئتين كبريين ، تتدرج الست الأول منها فى إطار سيكولوجية الجريمة والقانون ، وقد وضعنا الجريمة والقانون معًا دون أن نفصل بينهما على أساس أن القانون فى سيكولوجيته معنى فى الأساس بالتدابير التى تتخذ لدرء الجريمة واحتوائها ، أما المجالات السبعة المتبقية فتدخل فى إطار العمليات القانونية، أى الصيغ التى تتخذ فى اتجاه إحكام الإجراءات الحاسمة للإدانة القانونية أو عدم الإدانة .

ومن الطبيعى ألا تتم معالجة كافة هذه الموضوعات فى هذا السياق ، وإلا خرجت المعالجة عن حدودها الملائمة التى تقضى فى هذا المقام بضرورة الاكتفاء بطرح النماذج المعبرة عن وجهة النظر مع الإيجاز المحكم ، ومن ثم فإننا سوف نكتفى بعدد قليل فقط من الموضوعات يتحدد وفقًا للمحكات التالية :

١ - أن تعطى النماذج المختارة فكرة عن طوبولوجية العلاقة بين علم النفس والقانون فى تضاريسها الأساسية .

٢ - أن تتم معالجة الموضوعات ذات الثقل النسبى فى مجتمعنا المحلى .

٣ - ألا تنسحب المعالجة على كافة جوانب الموضوع محل النظر ، بل يكتفى بإبراز بعض عناصر الموضوع التى تستنفر الرغبة النشطة ذاتيًا فى إقامة جسور العلاقة بين التخصصين محل الاهتمام .

٤ - أن تستوعب المعالجة بعض الرؤى الجديدة فى ميدان الممارسة على النحو الذى يمكن من إعادة النظر فى تصورات قائمة فى ميدان الممارسة ، أصبح من الجلى أهمية إعادة النظر فيها .

واحتكاما إلى هذه المحكات انبثقت أهمية معالجة الموضوعات التالية :

١ - انتهاك القانون بحكم كونه موضوعًا له وزنه الواضح فى معالجات الباحثين فى سياق مجتمعنا المحلى .

٢ - التنشئة القانونية بحكم كونها تمثل موضوعاً شديد الخطورة فى اتجاه فهم دينامية التفاعل بين الأفراد والبنود التشريعية التى تمت صياغتها لضبط صنوف سلوكهم .

٣ - أهداف القانون لمعرفة المرامى القريبة والبعيدة التى تحكم الصياغة التشريعية لبنوده .

٤ - شهود العيان بحكم شيوع التعامل مع هذه الآلية فى محاكمنا ، وما يقتضيه هذا الشيوع من تقييم لهذا الإجراء من حيث إمكانية الاعتماد عليه فى حسم الأحكام القضائية فى اتجاه أو آخر .

٥ - الإخصائيون النفسيون كشهود خبراء ، إذ أن فى معالجة هذا الموضوع ما يمكن من إتاحة مدخل شديد الأهمية يصل وظيفيًا بين رجال علم النفس ورجال القانون .

أولاً – انتهاك القانون :

شغل موضوع انتهاك القانون على امتداد العصور أذهان علماء العلوم الاجتماعية ورواد الفكر والإصلاح الاجتماعى ، إذ كان ولا يزال يشغلهم سبب إقدام الفرد على سلوك يلحق بالآخرين أذى بدنى أو مادى أو معنوى ، رغم ما قد يجلبه هذا السلوك من عقاب بواسطة السلطات المعنية .

وكان من الحتمى أمام انشغال العلماء والمصلحين بهذا الأمر أن تختلف رؤاهم وتتباين زوايا اهتماماتهم نظراً لتركيب ظاهرة الجريمة وتعدد أبعادها ، ومن ثم وجدنا تفسيراً للجريمة من منظور بيولوجى ، كأن تتم رؤية الجريمة من منظور التقرير بخصائص وراثية تشكل استهدافًا للجريمة ، أو تتم رؤيتها من منظور اجتماعى كانخفاض المستوى الاجتماعى أو المستوى الاقتصادى على سبيل المثال ، أو أن تتم رؤيتها من منظور ثقافى لمعرفة إمكانية وقوع الجريمة فى ظل توجه قيمى بعينه فى إطار ثقافة بذاتها ، أو تتم رؤيتها من منظور خصائص نفسية مثل الاندفاع وعدم التروى والتوتر والتحرك من وحى الرغبات العاجلة لا الآجلة ، وشدة الطموح غير الموصول بآليات ومهارات ملائمة من العمل .

وأيًا كانت الرؤية التى تحكم تفسير البعض للجريمة على نحو يختلف عن تفسير البعض الآخر ، فإنه لا يمكن حصر الجريمة فى دائرة رؤية بعينها ، لأن الجريمة سوف تبدو عندئذ كما لو أنها اختزلت منها بعض عناصرها .. والنتيجة المترتبة على هذا هى مراوغة الظاهرة ، والعجز بالتالى عن استجلاء معناها .

والبديل عن هذا بطبيعة الحال أن ندرك الظاهرة فى ضوء ملابساتها المختلفة ، وبمعنى آخر توضيح الصيغة التى تحكمها فى حدوثها ، وهذا لا يعنى أننا نلتزم بتقديم حصر شامل عن كافة الأمور التى تقف خلف انتهاك القانون ، فهذا يخرج عن حدود المقبول والملائم ، ولكن ما يعنيه قولنا هو أن نسجل المتغيرات التى تشكل فيما بينها نظمًا يبلور مقومات الظاهرة ورصيدها الأساسى . ولذا فإننا سوف نشير إلى هذه المتغيرات ، وعسانا فى ضوء هذه الإشارة أن نقترب من الظاهرة على مستويين

رئيسيين : مستوى التفهم لأبعاد الظاهرة وملابسات حدوثها ، ومستوى الانتباه الفطن إلى منافذ احتوائها وقائيًا وعلاجيًا . وفيما يلى أهم هذه المتغيرات التى أوضحتها الدراسات الإمبريقية الحديثة :

١ - أن منتهك القانون هو من ضعف لديه الثقل النفسى للجماعة ، بمعنى آخر هو من لا يمثل الآخرون بالنسبة له وزنًا كبيرًا فى وجدانه ، ومن ثم فهم لا يمثلون بالنسبة له مرجعية فى سلوكه . ولذا يرى الباحثون (محيى ، ١٩٩٤ ، ص ٣٧٨) أن ضعف الثقل النفسى للجماعة يمثل بالنسبة لمنتهك القانون شرطًا ضروريًا لحدوث الانتهاك ، وذلك إلى الحد الذى ينهض بالنسبة فى رؤية الباحثين إلى مستوى عامل استهداف للجريمة .

وتجدر الإشارة إلى أن ضعف الثقل النفسى للجماعة فى نفس منتهك القانون لا يتخلق بين عشية وضحاها ، بل هو خاصية نفسية اجتماعية مؤسسة على خبرات حياتية مختلفة تراكمية الطابع ، بعضها أسرى وبعضها اجتماعى عام ، بعضها مفعم بالاحباطات وبعضها الآخر مستنفر لمشاعر اللا تواد وعدم الألفة الاجتماعية ، وبعضها مولد للحرمان النفسى الاجتماعى ، وبعضها الآخر مفرز للتوتر .

ولا يتكلف المرء جهداً كبيراً عندما يحاول أن يستخلص من أية نظرية للجريمة معنى صريح أو مضمر يتصل بهذه الظاهرة النفسية الاجتماعية (ضعف الثقل النفسى للجماعة) ، ومن ثم فهى مدخل أساسى لارتكاب الجريمة .

وقد يبدو ضروريًا هنا أن نميز بين نوعين من الجرائم: جرائم انفعالية hot crimes الطابع ، أى يرتكبها أصحابها تحت وطأة الانفعالات الشديدة ، كالدفاع عن الشرف على سبيل المثال . وجرائم مجردة عن المعانى القيمية والانفعالية cool crimes ، أى التى ترتكب بتقنية الممارسة الإجرامية ، ودوافعها التقليدية . وليس من العسير أن نتكهن بإمكانية ارتكاب النوع الأول تحت وطأة تحاشى لوم الآخرين واستنكارهم ، وإمكانية ارتكاب النوع الثانى فى ظل ضعف الثقل النفسى للجماعة .

٢ – يرى معظم الأفراد أن وجود القانون وجوبى ، لأنه كاف لدوافع الأفراد إلى ارتكاب الجريمة ، رغم تسليمهم بينهم وبين أنفسهم بأنهم يتحركون فى سلوكهم باعتبارات تتجاوز مسألة وجود القانون أو عدم وجوده .

وتنطوى هذه الحقيقة على أمر بالغ الأهمية وهو ضرورة عدم التهاون فى تنفيذ القانون ، لأن فى هذا التهاون ضيا ع للهدف الذى من أجله وجد القانون ، ألا وهو ضبط السلوك البشرى وأحكامه . ولا يجب يستنتج من كلامنا هذا أننا مؤيدون أو غير مؤيدين لمسألة استعداد الأفراد الفطرى للجريمة .. فهذه المسألة فلسفية الطابع ولا محل لها ونحن نترسم صيغ ضبط السلوك بآلية القانون وإعماله على نحو متسق .

ويعضد التوصية الحالية المعانى المنطوية فى الحقائق الثلاث التالية مباشرة :

٣ – أن هناك تصوراً عند الأفراد بأن قبضة القانون قد ضعفت وأن ٩٠٪ من الجرائم التى يرتكبها الأفراد تقريباً لا يقع مرتكبوها تحت طائلة القانون ، أما بسبب ضعف المكافحة الشرطية ، أو بسبب عدم إحكام الإجراءات القانونية ، أو بسبب عدم تعاون المواطنين مع رجال الشرطة ، نظراً للجوء رجال الشرطة إلى اتجاهات غير ملائمة فى ممارسة أدوارهم .

٤ – أن هناك تزايداً فى معدل ارتكاب الجرائم ، فقد زادت فى السنوات الأخيرة جرائم القتل والسرقة المصحوبة بالعنف ، والسطو على المنازل ، والاعتداءات الجنسية على الأطفال ، والاتجار فى المخدرات .

٥ – أن انتهاك القانون عام الطابع وليس نوعيًا ، بمعنى أن من يرتكب جريمة معينة مرجح ارتكابه لجريمة أخرى مختلفة .

٦ – أن من اتهموا بجرائم – حتى وإن لم تتم إدانتهم – كانوا أكثر انتهاكًا للقانون من أولئك الذيم لم يتهموا على الإطلاق . وإن انطوت هذه الحقيقة على شىء فهى تنطوى على دور الترميز الاجتماعى فى خفض حصانة الفرد النفسية على نحو يجعله يتصرف بعد الاتهام بطريقة تختلف عما كان عليه قبل الاتهام ، ومن ثم فإن

هناك ضرورة للتريث فى توجيه التهم إلى أن يتم العثور على دلائل واضحة ترجح احتمالات الإدانة .

٧ - لازالت هناك اتجاهات سلبية من جانب المواطنين إزاء رجال الشرطة ، وهو أمر يقلل من فاعلية رجال الشرطة ودورهم فى مكافحة الجريمة ، ويبرهن على أن إعداد رجال الشرطة مازال أكاديمياً ، من حيث التزود بالخبرة دون المستوى الملائم ، إذ تبين الدراسات على أنه رغم وجود الأكاديميات الشرطية ، وتدريس بعض مقررات العلوم الاجتماعية فيها ، فإن واقع الممارسة يكشف عن أن الاعتماد على الموروث الخاص باكتساب الخبرة من الأفكار أكثر من الاعتماد على الخبرة العلمية المنظمة التى تستوعبها المقررات الدراسية .

٨ - إن واقع المثول أمام المحكمة أشد نفسياً على المتهم من الأثر الذى تتركه العقوبة فى نفسه .

ثانياً - التنشئة القانونية واتجاهات الأفراد حيال القانون :

غالبًا ما يتناول الباحثون هذه المسألة فى نطاق اهتماماتهم بعدد من الجوانب المختلفة مثل : التنشئة القانونية ، وقيمة القانون ووظيفته فى ضوء الأسئلة التالية : ما الذى يحدث إذا لم يكن هناك قانون ؟ وما هو القانون ؟ ولم يستوجب الأمر ضرورة اتباع الناس للقانون؟ وهل ثمة مواقف تستلزم انتهاك القانون؟ وما هو القانون العادل؟ وما هو القانون الجائر ؟

وربما كان من أكثر المعانى التى تستوجب التنويه إليها فى هذا السياق ، لأهميتها الشديدة ، أن المسار الذى تأخذه عملية التنشئة القانونية يمتد من نقطة يكون فيها القانون خارج الأفراد لينتهى - فى ظل صلاح عملية التنشئة القانونية - إلى نقطة يصير فيها القانون داخلهم . وبمعنى آخر الانتقال من مرحلة النظر إلى القانون على أنه أمر مفروض بالقوة ومن الضرورى الامتثال له ، إلى مرحلة تقضى باعتبار القانون

بمثابة المبادئ التى تستوجب تبنيها معرفيًا ووجدانيًا حتى تصاغ حياة الأفراد على نحو قويم . ويترتب على هذا الترقى فى مسار التنشئة القانونية وانتقال الفرد بمقتضاه إلى المرحلة الثانية أن يسقط عن القانون معناه السلطوى ليحل محله المعنى الأخلاقى ، بحيث لا يكون الخوف هو الكامن خلف الانصياع للقانون ، بل يغدو الاحترام للقانون هو الكامن خلف الأخذ به والسير بمقتضاه .

كما أن التنشئة المحركة للأفراد ، من نقطة الخوف من حراس القانون إلى نقطة الالتزام بنصوص القانون من منظور دواعيه ومبرراته ، ليست بالعملية السهلة أو اليسيرة على أى مجتمع من المجتمعات، إذ تتدخل عوامل سياسية واجتماعية عامة ونفسية فى دينامية هذه العملية ومسارها ، حيث نجد أن بعض المجتمعات غير قادرة على التحرك على مستوى المرحلة الثانية ، وأن بعضها الآخر قد أمكنه التحرك إلى هذا المستوى بسهولة ، وبالمثل فإننا نجد داخل المجتمع الواحد أفرادًا يتعاملون مع القانون بمنظور المرحلة الثانية ، فى حين أن هناك أفرادًا آخرين يتوقفون عند المرحلة الأولى . ومن ثم تقضى الأمور بضرورة إجراء دراسات تميط اللثام عن التباين القائم بين المجتمعات المختلفة ، وعن التباين القائم داخل المجتمع الواحد سواء بسواء .

ومن أبرز المتغيرات الهامة التى خرجت بها بعض الدراسات الإمبريقية فى هذا الصدد بوصفها متغيرات ميسرة للانتقال إلى المرحلة الثانية من التنشئة القانونية نذكر التالى :

١ – التنشئة الأسرية الواعية .

٢ – عدالة القانون (ملاءمة الصياغة القانونية لواقع الحال) .

٣ – إحكام قبضة القانون على الأفراد .

٤ – العدالة فى تنفيذ القانون .

٥ – الوعى القانونى .

ثالثاً - أهداف القانون :

يشير المعنيون بالقانون تشريعًا أوتنفيذًا إلى أربعة أهداف رئيسية منوط بالتشريع القانونى الوفاء بها ، وهى :

١ - حماية أعضاء المجتمع .

٢ - الردع الخاص والعام .

٣ - التأهيل والتقويم .

٤ - إدماج الخارجين من السجون فى سياق الحياة الاجتماعية الطبيعية .

ومن الملاحظ أن هذه الأهداف الأربعة تعنى بمستوى الإصلاح ، الوقاية والعلاج ، كما يلاحظ عليها أيضًا أنها أهداف شرعية تنطوى على مبررات وجود القانون وأهمية الالتزام به .

أ - حماية أعضاء المجتمع :

ويعد الهدف الأول من أكثر الأهداف الأربعة توجهًا وعلى نحو مباشر إلى المجتمع بكامله ، لأنه محرك لآلية الحفاظ على المجتمع ودرء المخاطر عنه .. هكذا صراحة .. صحيح أن الأهداف الأخرى لها نفس الوجهة ولكن بآليات مختلفة ومداخل مختلفة أيضًا ، لكن التوجه الصريح للهدف الأول يجعله هدفًا اجتماعيًا عامًا على أرضه ، ومن وحيه تصاغ القوانين أو تعدّل أو تتغير ، ولذا فإنه من وحى الهدف الأول يتسيد الاهتمام الوقوف على جوانب الخطورة التى تهدد الحياة الاجتماعية للأفراد ، وهذا يعنى أول ما يعنى :

١ - ضرورة تحديد معنى الخطورة تحديداً دقيقًا يحول بين المجتمع وبين قهر بعض أفراده على يد أفراد آخرين ينطوى سلوكهم على ترويع الآخرين ، بصورة تحول بين المجتمع وبين الحد من خطورة مسلك بعض أفراده .

٢ – تجفيف منابع الخطورة الكامنة عند بعض الأفراد قبل أن تتحول هذه الإمكانية إلى واقع فعلى من الممارسة المهددة لأمن المجتمع واستقراره.

٣ – ضرورة أن تتضمن حيثيات القضايا بنداً يختص بالخطورة ، ومن ثم يكون الحكم موجهًا فى جانب منه إلى اعتبارات الخطورة .

٤ – ضرورة أن يكون للتقارير النفسية وجودها فى الإجراءات القانونية ، وأن يكون لها وزنها فى وجهة الحكم الذى تصدره المحكمة .

٥ – وضع خطة العلاج النفسى فى إستراتيجية مكافحة الجريمة .

ولا أعتقد أن هذه الأمور الخمسة قد نالت حظها من العناية ، ربما لأن الأحكام القضائية وإلى الآن قد حصرت نطاق رؤيتها فى دائرة الوقائع المباشرة للقضايا دون أن تتسع لتستوعب السياق العام الذى أفرز هذه القضايا أو أفرز وقائعها .

ب – الردع الخاص والردع العام :

يتأسس مفهوما الردع الخاص والردع العام على فكرة العقاب ، إذ يعنى الردع الخاص إنزال قدر من الأذى بالجانى يتكافأ مع قدر الأذى الذى أنزله بالمجنى عليه أو الضحية ، ويعنى الردع العام أن يغدو الجانى بما يناله من عقاب بمثابة قدوة سلبية لكل من تسول له نفسه – بحكم كونه مستهدفًا لارتكاب الجريمة – الإتيان بفعل مماثل.

وتبين الكتابات القانونية وكذلك البحوث النفسية أن الردع الخاص والردع العام آليتان تحظيان بكل الاهتمام فى الإجراءات القضائية ، إن لم تكونا تحظيان بكل الاهتمام على حساب الآليات الأخرى التى كان من المؤمل للإجراءات القانونية أن تستوعبها جميعها لمواجهة الجريمة فى حاضرها ومستقبلها . ومن الواضح أن قصر القانون فى توجهه على العقاب تجعله من جانب غير محقق لمأرب مثمر من تطبيق هذا العقاب ، كما تجعله من جانب آخر قاصراً على أن يمتد فى إستراتيجيته إلى دائرة الإصلاح والتقويم . إذ لا يتحقق الإصلاح والتقويم عن طريق العقاب وحده ، بل يتأتى من خلال نبذ السلوك الإجرامى المرفوض اجتماعياً وقانونياً وأن يستبدل به سلوك آخر

مقبول اجتماعيًا وقانونيًا .. وبمعنى آخر إتاحة السبيل أمام تعلم ضروب سلوكية جديدة تحقق الأهداف المرجوة بصيغ ملائمة ذات مردود إيجابى على الفرد وعلى المجتمع سواء بسواء .

وجدير بالذكر أن القانون وإن صاغه رجاله بالممارسة على أرض العقاب ، فإن الأصل فيه - على الأقل مع بدايات حركة الإصلاح الاجتماعى فى أوائل القرن الماضى - أن يُحال بين مرتكب الجريمة وبين حصوله على ميزة مكفولة للجميع وهى التحرك فى المجتمع العريض ، وذلك عن طريق إيداعه فى مؤسسة تضطلع بالإصلاح والتقويم (اصطلح على تسميتها بالسجن). فالسجن إذن فى عرف الإصلاح الاجتماعى هو مكان للعزل الاجتماعى لفترة يتم فيها تقديم خبرات علاجية وتعليمية وتربوية .

لكن التساؤل رغم هذا هو : هل نجح المجتمع فى أن يحرر نفسه من أغلال فكر سيطر عليه لفترة طويلة ، وهو أن لا قبل لمواجهة الجريمة إلا العقاب ، وأن لمرتكب الجريمة نوازع فى نفسه تقيم علاقة طبيعية بينه وبين الجريمة ؟ والإجابة على ذلك هى بالنفى بكل تأكيد .. فما زال مفهوم السجن يمثل فى أذهان أغلبية الأفراد المكان الذى يتم فيه احتجاز الخطرين والمهددين لأمن المجتمع (Ellison, et. al., 1981, p. 243) .

وما على المتشكك فى هذه الحقيقة إلا أن يخبرنا عن معنى الردع فى القانون ، وأن يخبرنا أيضًا عن ماذا تعنيه ديباجة حكم المحكمة فى قولها " ... حكمت المحكمة حضوريًا أو غيابيًا على المتهم ... " ثم يأتى منطوق الحكم .

ومع ذلك فقد يتحفظ البعض على رؤيتنا بالقول بأنه وإن أمكن التسليم بأن الردع الخاص منطو على العقاب ، فإن الردع العام منوط به بلا شك الحيلولة بين المستهدف لمرتكب الجريمة ووقوع الجرم ذاته تحاشيًا لمغبة أن يناله ما نال مرتكب الجريمة من عقاب ، وردنا على هذا بأن الردع العام مؤسس فى جوهره على التلويح بالعقاب ، ولا يختلف التلويح بالعقاب على المستوى النفسى عن العقاب نفسه .

وعمومًا فإننا لا نتحفظ على العقاب إلا لكونه قاصراً بمفرده عن أن يحقق إصلاحًا ، فالإصلاح مقترن بإقامة هندسة اجتماعية تتيح احتواء الجريمة وغلق مداخلها والتحرك من وحى نذرها المبكرة .

ولا يسعنا فى هذا المقام – لكى نعطى هذه الوجهة من النظر ما تستحقه من اهتمام – سوى أن نشير إلى ما أوضحته البحوث الحديثة من ازدياد الجريمة رغم التغليظ الشديد للعقوبة ، وخاصة عقوبة الإعدام ، وكذلك ازدياد معدل الاعتداء على رجال الشرطة ، إلى جانب افتقاد تعاون المواطنين مع رجال الشرطة رغم التشدد المفرط فى العقوبة .

جـ – التأهيل داخل السجون :

أشرنا فى سياق آخر إلى أن الهدف الأساسى من التأهيل هو كف السلوك غير القانونى وإرساء سلوك آخر بديل يمكن وصفه لإنه سلوك له قبوله الاجتماعى والقانونى، مع الاهتمام بأن يكون لهذا السلوك الجديد المتعلم امتداده إلى حيز السياق الطبيعى للحياة أى بعد أن يخرج السجين من سجنه . (محيى ، ١٩٩٤ ، ص ٤٠٢)

ويستعصى حتى الآن إدراك أن هذا المعنى الذى يمثله التأهيل قد ترسخ داخل السجون لاعتبارات مختلفة يتصل بعضها بظروف السجون ذاتها ، ويتصل بعضها الآخر بالسياق الاجتماعى العام . وفيما يتصل بالمناخ السائد فى السجون ، فمازالت الرؤية التى تحكمه هى أن السجون ، وعلى ما أشرنا سالفًا ، هى مكان لحجز أشرار المجتمع ونفاياته ، حتى ولو أشار التصريح اللفظى عنها إلى عكس ذلك .. فاتجاهاتنا اللفظية شىء واتجاهاتنا العملية شىء آخر .

وفيما يتصل بالسياق الاجتماعى العام ، فإنه من الصعوبة بمكان أن يتعامل أفراد المجتمع مع المسجونين بعد خروجهم من السجون على أنهم قد مروا بخبرة الإصلاح والتهذيب ، ومن ثم فإن التعامل معهم يتم على أنهم أشخاص صاروا طبيعيين، والكلمة الشائع استخدامها "أرباب سجون" ليست غريبة على مسامعنا ، كما تشهد التجربة العملية بأن الخارجين من السجون بعد إنهاء فترة العقوبة يجدون

صعوبة فى إيجاد عمل أو الانتظام فى الحياة بأدوارها المختلفة بسهولة ويسر ، فالحياة ذاتها بكل صورها تتحفظ عليهم كما تحفظت السجون عليهم قبل ذلك .

ومن ثم فإن التأهيل داخل السجون بمحاوره الرئيسية المتمثلة فى العلاج النفسى والتأهيل الاجتماعى والتأهيل التربوى والتمكين من الدمج الاجتماعى بعد انقضاء فترة العقوبة مازال يمثل أملاً بعيداً لم يتحقق حتى الآن .

ولعل أصدق تعبير عن أن السجون مازالت ترزح تحت تصور تقليدى عنها، وأنه من الصعوبة بمكان تحقيق التأهيل بها ، هو كما كشفت عنه إحدى التجارب الهامة التى أجريت فى قسم علم النفس بجامعة ستانفورد بالولايات المتحدة الأمريكية .

ويتلخص قوام التجربة فى محاولة إيجاد محاكيات simulators للسجن عن طريق الإعلان عن متطوعين للمشاركة فى دراسة نفسية عن حياة السجون فترة أسبوعين نظير خمسة عشر دولاراً يومياً. وتقدم بالفعل لهذا الغرض حوالى ٧٥ طالباً، لم يستمر منهم إلا عشرون بعد استبعاد الطلبة غير المتزنين انفعالياً. وقد تم تقسيم العشرين طالباً إلى عينتين عشوائيتين ، عشرة طلاب يمثلون الحراس وعشرة آخرون يمثلون المسجونين .

وفى بداية اليوم الأول من الأسبوعين المحدّدين للتجربة تم القبض على العشرين طالبًا فى بيوتهم بواسطة قسم البوليس حيث سلّموا إلى المكان المعد لمحاكاة بيئة السجن ، وقد عومل من قاموا بدور الحراس من منظور الزى والسلوك كرجال شرطة ، وعومل من اتخذوا دور المسجونين كمجرمين أودعوا السجن .

فتبين أنه على الرغم من أنه لم يُطلب من كلتا المجموعتين أية مطالب سلوكية محددة أكثر من أن يتصرفوا وفقًا لأدوارهم المحددة ، فإن مجموعة الحراس قد أخذت فى ممارسة الدور التسلطى على المجموعة الأخرى ، بينما اتخذت مجموعة المسجونين دور الخاضع الذليل . وأخذ هذا الطابع السلوكى يتزايد يومًا بعد يوم وبصورة اتضح منها أن الطلاب نسوا أدوارهم كطلاب وصاغوا سلوكهم فى قالب الدور الجديد ، إلى الحد الذى كان فيه القائمون بالتجربة مضطرين لأن يطلقوا سراح الآخذين لدور

المسجونين واحداً بعد الآخر بعد مضى ثلاثين ساعة فقط على التجربة نظراً لإصابتهم تدريجياً بالاكتئاب الحاد والبكاء واضطراب التفكير . ولم يتبق فى اليوم السادس من بدء التجربة غير خمسة من الطلاب الآخذين لدور المسجونين ، وكان من الضرورى إطلاق سراحهم فوراً فى ذلك اليوم لأنهم كانوا على شفا الانهيار العصبى .

والتساؤل المطروح الآن أمام من يتمعن فى التجربة وما انتهت إليه هو : إذا كان هذا هو الحال مع دارسى علم النفس ممن تقع على اكتافهم مسئولية التأهيل ، وممن كان من المتصور أن يكون لهم مسلك تربوى قويم مع الآخذين لدور المسجونين ، وإذا كان هذا هو الحال إيضاً فى ظل صيغة للمحاكاة ونموذج متصور عن السجون وأسلوب تعاملها مع المسجونين ، فماذا سيكون عليه الحال فى السياق الطبيعى للسجون ، والذى ينتظم بالضرورة فيه إناس ليسوا على ألفة بالتأهيل ومقوماته وفلسفته ؟ هذا التساؤل نطرحه لا لنتلقى عنه إجابة ولكننا نوجهه فى شكل دعوة للتأمل عسى أن يتم من خلالها تغيير مفهوم السجون وشكل العمل بها .

د – الدمج الاجتماعى :

إن المناداة بصيغة للعمل داخل السجون تنطوى على العلاج النفسى والإصلاح الاجتماعى ليست مجرد دعوة يتم طرحها من قبيل التزيد فى الأخذ بمعانى تقدمية ذات ملمح إنسانى مع فئة من الأفراد غابت عن تنشئتها الملامح الإنسانية فى التعامل ، ولكنها بمثابة الدعوة إلى الاستبصار بما سوف يكون عليه الحال بعد أن يقضى المسجونون فترة العقوبة ويرتدوا من جديد إلى السياق الاجتماعى العام . فإذا كان مقدراً لفترة السجن أن تكون فترة للعلاج والإصلاح فإن الأمل يحدونا فى أن يكون لهؤلاء طريقاً جديداً فى الحياة يختلف عن طريق كان لهم قبل دخول السجن ، ومن ثم فإن هناك إمكانية لتواصلهم الصحى مع المجتمع العريض بحيث يمكن أن يجدوا أنفسهم فى هذا المجتمع ، ويجد المجتمع نفسه من خلالهم ، شأنهم فى ذلك شأن عموم الأفراد . أما إذا كانت فترة سجنهم فترة لتعميق الاضطراب النفسى الذى بداخلهم ، وتعميق المزيد من هجر المجتمع لهم .. فعليهم وعلى المجتمع السلام .

ولا يمكننا أن نرى بارقة أمل فى وجود دمج اجتماعى للمسجونين بعد خروجم من سجونهم فى ظل غياب التأهيل بمحاوره الأربعة عن هذه السجون، فالقصد من التأهيل النفسى والاجتماعى هو أن يخرج المسجونون وهم مسلحون بإماكانات التواصل الصحى مع المجتمع ، وما دام الحديث عن التأهيل داخل السجون مازال لفظًا يقال ، أكثر منه فعلاً يتم .. فلا محل للحديث عن دمج اجتماعى بعد الخروج من السجون .. وهذه هى المشكلة الكبرى التى ينبغى على المجتمع أن يواجهها، بل أن هذا هو التحدى الذى عليه أن يقبله بالتزاماته ليسلم من غائلة فئة من أبنائه ، قد تكون قليلة فى عددها ولكنها صعبة المراس فى تأثيرها الذى يجلب الضرر والتهلكة .

رابعًا - شهود العيان :

تكشف البحوث التى أجراها عدد مختلف من الباحثين (Rattner, 1988) أن تحديد المذنب من خلال شهود العيان ليس بالعملية الموسومة بالدقة ، إذ تبين من خلال مسح أُجرى على ٢٠٥ حالة من التأثيم الجنائى الخاطئ أن حوالى ٥٢٪ من هذه الحالات راجع إلى وجود خطأ فى شهادة شهود العيان ، وكانت معظم الإدانات التى وجهت بها هذه الحالات ذات عواقب وخيمة لخطورة الجرائم التى كانت محل نظر بالنسبة لهم .

وقد حاول علماء النفس أن يقفوا على مكان الخطأ فى شهادة شهود العيان، على أمل أن تسهم محاولاتهم فى تنوير العدالة بما يجب الاحتراز منه، خاصة وأن هذه الآلية من الآليات ذات الشيوع فى إجراءات المحاكم المنوط بها تحديد الجانى والكشف عنه .

وقد أثمرت محاولاتهم فى هذا الصدد مجموعة من الحقائق نورد بعضاً منها على سبيل التأمل والتدبر فى صياغة مستقبل الممارسة :

١ - كلما طالت الفترة المنقضية بين مشاهدة الحدث واستدعائه ، قلت دقة التعرف على الجانى ، وإذا ما أخذنا فى الاعتبار أن الفترة المنقضية بين مشاهدة الحدث واستدعائه لا تستغرق فى تجارب علم النفس أكثر من نصف ساعة، ومع ذلك

يتسرب الخطأ منها ، كان علينا أن نتصور حجم الخطأ الذى يكمن فى شهادة شهود العيان فى المواقف الفعلية للحياة والتى قد يطول فيها لأيام أو شهور .

٢ – لا ترتبط ثقة الشاهد فى روايته بدقة استدعائه للحدث ، وذلك على عكس المسلمة السائدة فى المحاكم التى تربط ما بين الثقة فى الشهادة والدقة فيها عند المدلى بشهادته .

٣ – للخصائص النفسية للشاهد تأثير فى شهادته ، فقد تبين على سبيل المثال أن الأشخاص المتسلطين تتركز شهادتهم على خصائص المتهم ، فى حين تتركز شهادة غير المتسلطين على شواهد الواقعة وتفاصيلها .

٤ – إن اللغط الذى يتضمنه السؤال الموجه إلى الشاهد له تأثير كبير فى تشكيل تفاصيل الشهادة المقدمة ، فكلمة اصطدام أو ارتطام تستنفر عند الشاهد تقريراً برؤية زجاج متناثر على الأرض ، على عكس الحال عند السؤال الذى يكتفى بتحديد السرعة التى كانت السيارة تندفع بها .

٥ – ثمة مصادر للخطأ فى شهادة شهود العيان يمكن أن تصنف فى فئتين : فئة الأخطاء التى لا تقع مسئوليتها على الهيئة القضائية، أى لا دخل للهيئة القضائية فيها، مثل طول الفترة المنقضية بين الحدث والاستدعاء للشهادة وما يترتب على هذا نسيان بعض التفاصيل ، وفئة الأخطاء التى تقع مسئوليتها على الهيئة القضائية مثل أن يساق المتهم الفعلى بصحبة رجال الشرطة فيراه الشاهد ، ومن ثم يتعرف عليه تعسفياً وهو موضوع مع آخرين لا صلة لهم بالجريمة . فمعلومات كهذه وأخرى غيرها كثيرة قادرة علـى أن تضع هــذه الآلية فى حجمها الحقيقى من حيث الحسم بالإدانة أو عدم الإدانة . (Cesi, 1993)

٦ – ليس الأطفال على عكس ما هو مستقر فى أذهان الهيئة القضائية ذوى شهادة أصدق من الراشدين ، إذ أن التوتر الذى يشوب موقف الشهادة مربك للأطفال ومضعف لقدرتهم على التذكر . (Kohnken, 1996, 268)

٧ – لا تتوافر الدقة فى الشهادة ، فى ظل عدم خطورة الجريمة وفى ظل وجود سلاح عند ارتكاب الجريمة ، وفى ظل التوتر الشديد . (Steblay, 1992)

هذه النماذج قليلة من بين حقائق كثيرة توصل عليها علماء النفس من تجاربهم وهى نماذج من شأنها – إذا ما وضعت تحت نظر وإدراك الهيئة القضائية – أن تمكنهم من تجاوز بعض أخطاء الممارسة غير المقصودة والاقتراب بالتالى من حلمهم فى تحقيق عدالة منشودة .

خامساً – الإخصائيون النفسيون كخبراء فى المحاكم :

لم يعد بالإمكان التغاضى عن الدور الذى يمكن للإخصائى النفسى ، وخاصة المتخصص فى علم النفس الشرعى ، أن يمارسه فى المعاونة على صياغة الإجراءات القانونية التى تتخذ فى اتجاه الحسم بالإدانة أو البراءة ، فقد تراكمت آلاف الحقائق فى هذا الميدان ، وأعنى به ميدان علم النفس الشرعى ، على نحو من المقدر له أن يكون عوناً للمحاكم عند النظر فى القضايا المطروحة عليها . وإذا كان علينا أن نسوق أمثلة لما يمكن أن يسهم الإخصائيون النفسيون به فى هذا الاتجاه ، فإن شهادة الإخصائيين النفسيين حول قيام الخطورة أو عدم قيامها فى سلوك المتهمين تأتى فى طليعتها ، ويترتب على تلك الشهادة كفالة الحماية للمجتمع من الخطورة التى يمثلها بعض الأفراد بالنسبة لأنفسهم أو بالنسبة للآخرين على حد سواء ، ومن ثم ترشيد المحكمة فى أحكامها الصادرة عنها من حيث استيعاب أمن المجتمع وعدم ترويعه بما تنطوى عليه حيثيات هذه الأحكام .

ومن بين إسهامات الإخصائى النفسى الشرعى أيضاً التقرير بقيام المسئولية أو عدم قيامها فيما أقدم عليه المتهم ، ويمثل هذا الجانب أهمية شديدة لأنه ركن أساسى فى حيثيات أى حكم يصدر من قبل المحكمة، وهو ما يعرف عند رجال القانون بالمسئولية الجنائية .

ومن بين الإسهامات المتميزة للإخصائى النفسى أيضًا تقديم المشورة العلمية فيما يتصل بخصائص الشهود النفسية ، ومن ثم التكهن بحدود الموضوعية فيما يدلون به من شهادة ، وكذلك الإفادة بالحكم العلمى المتخصص فى صلاحية التعويل على بعض الإجراءات التى تلجأ إليها المحاكم سعيًا وراء تقصى الحقائق مثل: الاعتماد على جهاز كشف الكذب ، أو على العرض البوليسى للمتهمين ، وكذلك الحدود الملائمة لاطلاع الرأى العام على بعض تفاصيل الوقائع المنظورة أمام المحاكم كسبيل احترازى يحمى هيئة المحكمة ويحصنها من التأثر بانفعالات الرأى العام وتوجهاته ، وكذلك كتابة تقارير نفسية عن الوضع النفسى للمتهمين للاسترشاد بها عند إصدار الأحكام . (Ainsworth, 1995) .

ولا يمكن أيضًا نسيان إسهام آخر يتمثل فى استلهام جهود علم النفس فى صياغة التشريعات القانونية ، خاصة وأن التشريع القانونى ما هو إلا صياغة قانونية لضبط السلوك البشرى وتقنينه . (Gudjonsson, 1997, 61)

ومع ذلك فإنه على الرغم من خطورة إسهامات علماء النفس والإخصائيين النفسيين وأهميتها فى تشكيل دعائم الإجراءات القانونية ، فإن هذا الدور لم تتم بعد بلورته البلورة الكافية التى تجعل منه مؤثرًا وفاعلاً فى القيام بهذه الإجراءات . ويقف وراء ذلك نوعان من الاعتبارات ، **يتصل أولها** بالنمط الذى درجت المحاكم على اتباعه وهو اللجوء إلى الأطباء النفسيين طلبًا للمشورة ، وهؤلاء لا يملكون بحكم ملابسات تأهيلهم مشورة مؤسسة على إجراءات مقننة ، وخاصة إذا قضت المشورة بتضمين تقييم موضوعى لوظائف نفسية بعينها كالذاكرة والإدراك ، والانتباه ، وما إلى ذلك من وظائف أخرى . ومن ثم فإنه لا مفر للأطباء النفسيين عندئذ سوى أن يلجأوا إلى الإخصائيين النفسيين كى يمدوهم بتقارير كمية الطابع تتصل بالأداء وفقًا لعدد من الاختبارات النفسية التى تشكل عنصرًا من عناصر التمكن عند الفريق الأخير ، وذلك كى يتمكن الأطباء النفسيون بعد ذلك من تقديم هذه التقارير إلى هيئة المحكمة بعد أن يضيفوا إليها بعض التعليقات النمطية . وبحكم هذا التوجه يصبح الإخصائى النفسى فى منطقة الظل رغم قيامه بمعظم العمل ، إن لم يكن كله .

وغالبًا ما تأتى التقارير بفعل المخاطبة غير المباشرة لأهل الاختصاص قاصرة عما تطلبه المحكمة ، إذ لم يهيئ معد التقرير الحقيقى (وهو الإخصائى النفسى) نفسه لمقتضيات المحاكم وصيغ العمل التى تحكمها فى أهدافها القانونية ، كما لا يملك مقدم التقرير (الطبيب النفسى) من دقائق تخصصه ما يضفى على التقرير الصلاحية الإجرائية والوظيفية التى تيسر عمل المحكمة .

أما **ثانى النوعين** من الاعتبارات فيتمثل فى أن الإخصائى النفسى لم يحظ بتدريب كاف فى مؤسسته الأكاديمية يعينه على أن يطوع معلوماته وذخيرته من التخصص لمقتضيات المشورة القانونية أمام المحاكم ، فما تدرب عليه الإخصائى النفسى هو تطبيق بعض الاختبارات النفسية شائعة الاستخدام وتفسير الدرجات المستمدة منها فى اتجاه تقرير انخفاض معدلات الأداء على هذه الاختبارات، أو ارتفاع معدلات الأداء عليها . وحتى إن حاول بعد ذلك أن يقدم رؤية مؤسسة على مؤشرات الأداء على هذه الاختبارات ، فإن هذه الرؤية لا تتجاوز التقرير العام بسواء الحالة أو عدم سوائها .

وبحكم هذين النوعين من الاعتبارات المشار إليهما غدا دور الإخصائى النفسى كشاهد خبير قاصراً عن الوضع المأمول فيه ، خاصة بعد تراكم الحقائق العلمية لديه فيما يتصل بإمكانية الإسهام الفاعل فى إجراءات المحاكم وتمكين هيئة المحكمة من الوفاء الأمثل بأدوارها المنوطة بها . ولا يصح أن نقبل مثل هذا الوضع ، ذلك أن العمل على تصويبه بات من الضروريات الهامة ، ونحن نتصور أن يتحقق تصويب الأمر من خلال ثلاثة مداخل هامة :

١ - احتواء المناهج الدراسية فى المؤسسات الأكاديمية والتعليمية المنوط بها إعداد الإخصائى النفسى المتميز على مهارات كتابة التقارير النفسية التى تخاطب الميادين العملية المختلفة ومقتضياتها الوظيفية ، ومن بين هذه الميادين الميدان القانونى بشقيه التشريعى والتنفيذى .

٢ - ضرورة أن تفسح المناهج الدراسية فى أقسام علم النفس صيغة يمكن عن طريقها إمكانية إيجاد مشاركة ذوى التخصصات الأخرى ، حتى تتلاقى الخبرة الأكاديمية مع ملابسات الخدمة العملية والتطبيقية فى ميادين الممارسة ، ومن ثم يدرك كل طرف حدود إسهام الطرف الآخر فى تشكيل دوره المهنى ومسئولياته .

٣ - إعداد دورات تدريبية مكثفة لكافة الإخصائيين النفسيين العاملين فى المجال القانونى ليفيد منها من لم يدخل فى إعداده إتقان مهارة تقديم المشورة للمحاكم ، على أن تعمل هذه الدورات كهدف لها فى اتجاه تجاوز القصور فى أدائهم حتى لا يقعوا فى مثالب الهامشية المهنية ، فينتج عن ذلك دون أن يقصدوا تهميش التخصص الذى يمثلونه .

٤ - آن الأوان لأن يمثل تخصص علم النفس فى مناهج كليات الحقوق ، فى شكل مقررات دراسية على مستويى المرحلة الجامعية الأولى والدراسات العليا ، على أن يقوم بتدريس هذه المقررات أساتذة علم النفس الشرعى ، بنفس القدر الذى ينبغى فيه أن يقوم أساتذة القانون بتدريس بعض مقررات القانون لطلاب علم النفس ، ومن ثم فإن هذا الإجراء يضفى صفة الرحابة على خريطة المناهج الدراسية على نحو يتناسب ويتناغم مع رحابة الخدمة التطبيقية والواقع العملى للحياة .

سيداتى وسادتى ..

فى ضوء هذه الإطلالة السريعة على العلاقة الوثيقة التى تقوم بين تخصصين من حيث الأهداف والمرامى ، يتضح لنا أن هناك أدواراً تستوجب من حضرتكم العناية وتستحق الاهتمام ، سواء كنتم رجال قانون أم متخصصين فى علم النفس . وإننى أعول فى المقام الأول على أن خلفيتكم العريضة وخبراتكم المتميزة فى كل من الميدان الأكاديمى وحقل الممارسة التطبيقية ما يجعل لما قلته صدى مأمولاً فى نفوسكم . ولو أن هذا الصدى تحقق واستشعرتم مدى الحاجة الماسة للالتقاء والارتباط بين الحقلين بما يحقق الفائدة المنشودة والغنم المرتقب ، فإن الأمل سيراودنى فى إنكم سوف تحولون هذا الاهتمام إلى خطة للتعاون المثمر والتزاوج العلمى المأمول بين

التخصصين فى قابل الأيام ، دون أن يفتر اهتمامكم أو تفقدوا الحماس فى سبيل تحقيق هدفكم .. فالأفكار العظيمة رهن بتحقيقها ، ومن يحققون الأفكار العظيمة هم بلا ريب رجال عظماء ..

وفقنا الله لما فيه خير أمتنا ووطنا، وجعلنا من الذين يؤمنون بالعلم سبيلاً للتطور، وألهمنا الصواب فى كل ما نقوم به، وهدانا إلى الإخلاص لمبادئنا وقيمنا العريقة .. وشكراً لكم على صبركم وحسن إصغائكم ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المراجع

١ - حسين، محيى الدين (١٩٩٤)، **فى علم النفس الجنائى**، دبى: كلية شرطة دبى .

2 - Ainsworth, P.B. (1995) **Psychology and Policing in a changing world,** New York : Wiley.

3 - Cesi, S.Y. (1993) Suggestibility of the Child witness : A historical review and Synthesis, **Psychological Bulletin**, 113, 403-439.

4 - Farrington, D.P. (1979) Introduction : Doing Psychological Research, in : D.P. Farrington, Et, Al. (Eds) **Psychology, Law, and Legal Processes,** London : Billing & Sins Ltd. .

5 - Gudjonsson, G.H., (1997) The role of the Expert in Criminal Investigation, in: J. L. Jackson, Et Al (Eds) **Offender Profiling, Theory, Research & Practice,** New York : John Wiely & Sons .

6 - Kohnken G. (1996) Social Psychology and The Law, in; G. R. Semin & K. Fiedler (Eds) **Applied Social Psychology**, London : Sage pub. Ltd. .

7 - Moss, G. (1981) Educational Psychologist and The Juvenile Court, in : S.Liond (Ed) **Law and Psychology**, Oxford : SSRC Centre for Socio - Legal Studies.

8 - Steblay, N . M. (1992) A meta - analytic review of the weapon focus effect, **Law and Human Behavior**, 16, 413 - 424 .

علم النفس والإعلام

فادية علوان

تلعب وسائل الإعلام المختلفة من صحافة وإذاعة وتليفزيون دوراً هاماً فى نقل الكثير من المعلومات والأخبار والحقائق المختلفة لكل من القارئ والمستمع والمشاهد . كما تعتبر وظيفة التثقيف من أهم الوظائف التى تؤديها وسائل الإعلام المختلفة والتى من شأنها أن تساعد على تطبيع أفراد المجتمع وإكسابهم مجموعة من المبادئ والقيم التى تسود ثقافة هذا المجتمع .

ونظراً لتعدد المنافذ الإعلامية التى يمكن أن تنقل من خلالها ثقافة المجتمع بشكل عام ، والثقافة النفسية بشكل خاص ، فسوف يقتصر حديثى على أحد وسائل الإعلام وهو التليفزيون حيث إنه الوسيلة الأكثر تأثيراً وأشد جاذبية وأعلى مشاهدة لدى الجمهور المصرى . من ثم سوف يقتصر موضوع محاضرتنا اليوم على الثقافة النفسية فى برامج التليفزيون المصرى .

وموضوع المحاضرة بهذا التحديد ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية هذه الأقسام هى على النحو التالى :

١ - **القسم الأول** : نتناول فيه تعريفاً عاماً لمفهوم الثقافة العلمية عموماً ومفهوم الثقافة النفسية بصورة خاصة مع تقديم أمثلة لبعض المفاهيم العلمية فى علم النفس التى يمكن تقديمها عبر الشاشة الصغيرة .

٢ – **القسم الثانى** : وصفى نتناول فيه الحديث عن البرامج الثقافية فى التليفزيون المصرى من حيث تعريفها ، أنواعها ، الأهداف التى تسعى إليها ، والوضع الحالى لبرامج الثقافة العلمية عموماً .

٣ – **القسم الثالث** : تفسيرى نطرح فيه لبعض الأسباب التى تقف وراء عدم نفاذ الثقافة العلمية عموماً والثقافة النفسية خصوصاً إلى عقل ووجدان المشاهد المصرى .

أولاً – المعنى العام للثقافة العلمية والثقافة النفسية :

ينقسم العلماء فيما بينهم فى تحديد المدلول العام للثقافة العلمية إلى اتجاهين : يعرف الباحثون من أصحاب الاتجاه الأول الثقافة العلمية فى ضوء المعرفة ، ونعنى بها مجموعة المفاهيم والأفكار والمعلومات والمعارف التى يكتسبها المتلقى للرسالة الإعلامية. أما الباحثون من أصحاب الاتجاه الآخر فيعرفون الثقافة العلمية فى ضوء السلوك . فالثقافة العلمية هى مجموعة الأنماط السلوكية التى تتكون لدى الفرد نتيجة معارفه ومعلوماته التى تلقاها عبر الوسيلة الإعلامية أى كان نوعها . والواقع أن العلاقة بين الجانب المعرفى والسلوكى علاقة يتضمن كلا الجانبين المعرفى والسلوكى معًا . فالثقافة العلمية فى أى مجال من المجالات هى مجموعة الأساليب المعرفية والأنماط السلوكية التى تتكون لدى الأفراد المتلقين للرسالة الإعلامية (صادق ١٩٩٨ ، جاد ١٩٨٧) .

انطلاقًا من هذا التعريف العام يمكن تعريف الثقافة النفسية من خلال بعدين : البعد الأول معرفى يتمثل فى مجموعة الحقائق والمعارف والمعلومات التى توصلت إليها الدراسات النفسية الحديثة والتى يتلقاها المشاهد المصرى عبر قنوات التليفزيون المختلفة . والبعد الثانى سلوكى يرتبط بالممارسات السلوكية والحياتية التى يمكن أن يستفاد بها عند معرفتنا بهذه الحقائق . فيما يتعلق بالشق الأول والخاص بالمفاهيم العلمية العامة التى يمكن تقديمها عبر التليفزيون فإنه يمكن على سبيل المثال ، وليس على سبيل الحصر ، أن نقدم لحضراتكم بعضاً من هذه المفاهيم :

أولاً – ثقافة الفروق بين الجنسين :

حينما نتحدث عن الثقافة النفسية وعلاقتها بالفروق بين الجنسين فإننا نقصد بالتحديد مدى إلمام المثقف العادى فى مصر بما كشفت عنه البحوث الحديثة فى علم النفس من حقائق حول الفروق بين الجنسين . من ثم فإننا لا نتحدث عن الفروق بين الجنسين فى الحقوق والواجبات ، ولا نتحدث عن الفروق بين الجنسين فى الهيئة الجسمية والبنية والبيولوجية ، وإنما نتحدث اليوم عن الفروق بين الجنسين فى الأنماط السلوكية وبالتحديد فى أحد المجالات التى شغلت أذهان الباحثين لفترة طويلة وهو مجال القدرات العقلية .إن السؤال الأول الذى يتبادر إلى الأذهان حينما نتحدث عن الفروق بين الجنسين فى القدرات العقلية هو ، من هو أكثر ذكاءً الرجل أم المرأة ؟ إن الإجابة المباشرة على هذا السؤال والتى تبدو منطقية لأى فرد هو أن يأتى بأحد اختبارات الذكاء المقننة والمعروفة فى المجال ويقوم بتطبيقها على عينة من الذكور والإناث ثم يقارن بين درجات الأفراد فى كلتا العينتين . فإذا كان متوسط أداء الذكور أعلى جوهريًا توصل إلى أن الرجال أعلى ذكاء من النساء والعكس صحيح إذا كان متوسط عينة الإناث أعلى من الذكور توصل إلى نتيجة مؤداها أن النساء أعلى ذكاءً من الرجال . وعلى الرغم من بساطة ومنطقية هذا الإجراء غير إننا لا نستطيع أن نعتمد عليه فى الإجابة على التساؤل الذى طرحناه . ويرجع ذلك إلى أن الطريقة التى صممت بها اختبارات الذكاء فى علم النفس لا تسمح لنا بإجراء مثل هذه التجربة البسيطة . حيث صممت اختبارات الذكاء على أساس استبعاد أى سؤال يظهر مضمونه تفضيل أحد الجنسين على الآخر . من ثم فإن أسئلة اختبارات الذكاء تكون دائمًا محايدة لكلا الجنسين .. الطريقة الثانية التى يمكن أن تأتى إلى الذهن للإجابة على تساؤلنا السابق ، وهو هل المرأة أعلى ذكاءً من الرجل ؟ هو أن نقوم بمسح عام على المهام والوظائف التى يعمل فيها الأفراد داخل المجتمع . فقد يفترض مثلاً أن الوظائف العليا فى المجتمع مثل العمل فى مجال الهندسة ، الفيزياء ، القضاء ، القيادات السياسية ، البحث العلمى ... إلخ. ربما يتطلب قدرًا أعلى من الذكاء، مع ذلك فإذا كانت نسبة الرجال الذين يعملون فى هذه المجالات أعلى من نسبة النساء دل ذلك

على أن الرجل أعلى ذكاءً من المرأة . وهذا أيضًا استنتاج خاطئ . ذلك أن الحكم على أن الرجل أعلى ذكاءً من المرأة أو أن المرأة أعلى ذكاءً من الرجل لا يتأتى من خلال مقارنة الوظائف والمجالات التى يعمل فيها كل منهما ، حيث تتحدد هذه الوظائف تبعًا للدور الذى تفرضه ثقافة كل مجتمع على عمل المرأة والرجل . فحتى عهد قريب كانت هناك وظائف قاصرة على الرجال دون النساء، كذلك نجد أن هناك وظائف أخرى نسبة عدد الرجال الذين يعملون بها قليلة مثل العمل فى مجال التمريض ، رياض الأطفال ، أعمال السكرتارية ... إلخ .

طريقة أخرى يمكن التفكير فيها للإجابة على السؤال الخاص بالفروق بين الجنسين فى الذكاء ، هو عقد مقارنة بين الذكور والإناث فى مستوى التحصيل الدراسى . يلاحظ بشكل عام أن الإناث يتفوقن على الذكور فى المدرسة : فغالبًا ما يحصلن الإناث على درجات أعلى من الذكور، حتى فى بعض المواد مثل الرياضيات التى تتطلب مهارات وقدرات خاصة يبرز فيها الذكور عن الإناث . أقرب التفسيرات لمثل هذه المشاهدات هو أن الإناث أكثر ذكاءً من الذكور . ولكن طبيعة الأداء المدرسى غالبًا ما يتفق مع الدور الجنسى للبنات عن الدور الجنسى للأولاد . فنظام المدرسة غالبًا ما يعضد ويشجع الهدوء ، عدم الشغب ، الطاعة ، أداء الواجب . وهذه السمات تتفق أكثر مع ما يتوسمه المجتمع لدور البنت عن الدور الخاص بالولد (Halpern, 1982) .

المحصلة النهائية لهذه الملاحظات والمشاهدات بالإضافة إلى الاطلاع على البحوث العلمية هو أننا لا نستطيع أن نجزم بوجود فروق بين الجنسين فى الذكاء . مع ذلك فقد أمدتنا الدراسات والبحوث النفسية الحديثة بعدد من الحقائق حول الفروق بين الجنسين فى عدد من القدرات المعرفية الخاصة . يوجد شبه إجماع بين الباحثين حول ثلاث قدرات معرفية يختلف فيها أداء الذكور عن الإناث ، هذه القدرات الثلاث هى : القدرة اللغوية **verbal abilits**، القدرة الحسابية، القدرة البصرية المكانية **visusatpatial abilits**. وسوف نتحدث عن كل قدرة منها على حدة لنكشف عن الجوانب المختلفة فى كل قدرة ، وإلى أى حد يتفوق كل جنس على الآخر .

١ – القدرة اللفظية :

تتضمن القدرات اللفظية كل المكونات الخاصة باستخدام اللغة، فتشمل مثلاً: الطلاقة اللفظية ، الفهم الشفاهى للكلام ، استخدام التراكيب النحوية ، التناسب اللفظى ... إلخ . وتعتبر القدرات اللفظية من أوائل القدرات التى كشفت البحوث فيها عن وجود فروق بين الجنسين . ويمكن تلخيص أهم النتائج التى كشفت عنها البحوث النفسية فى هذا الجانب فيما يلى :

١ – يسبق الإناث الذكور فى البدايات الأولى للكلام .

٢ – يتفوق البنات على البنين فى القدرة اللغوية، وتظهر هذه الفروق بشكل أوضح بعد سن ١١ سنة .

٣ – يميل الأولاد إلى التهتهة – عند بداية الكلام – أكثر من البنات .

٤ – المرضى الذكور الذين يعانون من خلل فى وظيفة الكلام عند الإصابة بالشلل، أو إصابات عضوية، يواجهون صعوبة أكبر لاستعادة قدرتهم اللغوية عن المرضى الإناث.

إذا كانت نتائج البحوث تشير إلى تفوق الإناث على الذكور فى القدرات اللغوية ، فلماذا نلاحظ أن مشاهير الكتاب والأدباء يكونون من الرجال . هنا يمكن أن نقدم بعض التفسيرات منها مثلاً أنه حتى عهد قريب فى المجتمعات المتقدمة كانت نسبة المتعلمين من الذكور أعلى من الإناث . ولا يزال هذا الفرق موجوداً فى المجتمعات النامية . كذلك فإن المرأة عادة لا يكون لديها الوقت الكافى للكتابة ، فمعظم الأديبات المشهورات كن غير متزوجات . كذلك قد تكون محكات الإبداع الفنى فى الأدب مختلفة عما تقيسه اختبارات القدرات اللفظية فى العلوم النفسية . أو أن النساء الموهوبات فى الأدب لا تعطى لهن الفرصة الكافية للكتابة لإبراز هذه الموهبة .

٢ - القدرات البصرية المكانية :

ربما لا يعرف الكثيرون ما هو المقصود بالقدرات البصرية المكانية . يمكن تعريف هذا المفهوم بشكل بسيط بأنه قدرة الفرد على استخدام العلاقات القائمة بين الأشياء الموجودة فى الواقع . وتعتبر هذه القدرة أحد المتطلبات الرئيسية للعمل فى بعض المجالات مثل : الهندسة المعمارية ، والهندسة الإنشائية ، والطيران ، وقيادة السيارات ... إلخ.

وتشير البحوث الحديثة (Halpern, 1997, Warrick & Nagliere, 1993) أن القدرة البصرية المكانية تتضمن عاملين رئيسيين هما : العامل البصرى visualization ، والذى يتضمن قدرة الفرد على تصور كيف تبدو الأشياء عند تدويرها أو ميلها بزوايا مختلفة ، وكيف تبدو الأشياء المستوية إذا عولجت بالثنى والقطع وكيف تبدو الأشياء المجسمة إذا ما فتحت جوانبها المختلفة . العامل الثانى فى القدرة البصرية المكانية هو عامل التوجه المكانى orientation ، والذى يتضمن قدرة الفرد على اكتشاف العلاقات القديمة بين مجموعة المنبهات والإدراك الدقيق لها .

يمكن تلخيص أهم النتائج التى كشفت عنها نتائج الدراسات الحديثة فيما يتعلق بالفروق بين الجنسين فى القدرات البصرية المكانية فيما يلى :

١ - القدرة البصرية المكانية قدرة مركبة تتضمن مجموعة من العوامل النوعية .

٢ - لا توجد فروق بين الجنسين فى القدرة البصرية المكانية باعتبارها قدرة مركبة ، ولكن تظهر الفروق بين الجنسين حسب العوامل النوعية المتضمنة فى هذه القدرة وحسب المهام المستخدمة فى قياس كل منها .

٣ - يتفوق الذكور على الإناث فى المهام التى تتطلب التدوير الذهنى بينما يتساوى الذكور والإناث فيما يتعلق بعامل الإدراك المكانى للأشياء ، وقد توجد فروق بسيطة فى صالح الذكور .

٤ - يتسم أداء كل من الذكور والإناث على اختبارات القدرات البصرية المكانية بتباين شديد فى الدرجات . فهناك اختبارات معينة يظهر فيها الذكور تباينًا كبيراً واختبارات أخرى يظهر فيها الإناث تباينًا أكبر . من ثم فإن الفروق بين الذكور والإناث لا يظهر أحيانًا كفروق فى متوسطات الأداء على القدرة ككل .

٥ - يرجع بعض الباحثين هذا التباين فى الأداء إلى اختلاف الاستراتيجيات المستخدمة فى أداء كل مهمة، فربما يميل بعض الإناث إلى استخدام استراتيجيات لفظية فى أداء مهمة لا تتطلب ذلك، ويستخدم إناث أخريات استراتيجيات بصرية فى أداء نفس المهمة.

٦ - يرى بعض الباحثين أن الفروق بين الجنسين فى الأسلوب المعرفى المعروف بالاعتماد على المجال **field dependance**، والاستقلال على المجال **field independance**، سر بما يرتبط بالفروق بين الجنسين فى القدرة البصرية المكانية .

٧ - ترتبط الفروق بين الجنسين فى القدرات البصرية المكانية ببعض العوامل مثل: سمات الشخصية ، ممارسة أعمال تتطلب هذه القدرة ، أسلوب التنشئة الاجتماعية .

٣ - القدرات الرياضية أو الحسابية :

لا أحد ينكر أن أداء الإناث يكون دائمًا مختلفًا عن أداء الذكور فى اختبارات الحساب والرياضيات ؛ لكن الاختلاف لا يعنى أنهن أضعف ، أو أن الذكور أقوى، وإنما الاختلاف يعنى أن هناك خصائص معينة يتسم بها أداء كل من الذكور والإناث على اختبارات الرياضيات، وتقدم لنا الدراسات والبحوث النفسية بعض الحقائق حول طبيعة أداء كل من الذكور والإناث على مقاييس الرياضيات والحساب .

١ - الفروق بين الجنسين فى القدرة الرياضية والحسابية هى فروق لها طابع ارتقائى . فبينما تختفى هذه الفروق فى مرحلتى ما قبل المدرسة ومرحلة التعليم الإلزامى فإنها تظهر فى المرحلة العمرية الممتدة من ١٤-١٧ سنة ، حيث تشير النتائج إلى وجود فروق جوهرية بين الجنسين فى صالح الذكور .

٢ – فى مرحلة ما قبل المدرسة ومرحلة التعليم الإلزامى لا تظهر الفروق واضحة بين الجنسين، وإذا ظهرت فإنها تكون فى صالح الإناث، حيث تتفوق الإناث على الذكور فى عمليات الحساب والعد وليس فى عمليات حل المشكلات أو الاستدلال الرياضى .

٣ – فى مرحلة التعليم الثانوى تظهر فروق واضحة فى صالح الذكور، حيث يتفوق الذكور على الإناث فى عمليات الاستدلال الرياضى وحل المشكلات .

٤ – تظهر الفروق بين الجنسين بشكل واضح وفى صالح الذكور، وفى جميع الأعمار، إذا تحدثنا عن مستوى معين من مستويات هذه القدرة وهو المستوى الأعلى . ويعنى ذلك إننا حينما نتحدث عن الأطفال والشباب المتفوقين جداً فى الحساب والرياضيات فإن الذكور تكون لهم الغلبة على الإناث فى جميع الاختبارات والمهام .

ما هى المضامين العملية والتطبيقات الحياتية لمثل هذه الحقائق العلمية فى مجال الفروق بين الجنسين ؟

١ – إعادة النظر فى مقررات مناهج وزارة التربية والتعليم، ومحاولة إعطاء فرص متكافئة لكل من الأولاد والبنات داخل المدارس لإظهار مختلف مهاراتهم . إن تفوق الذكور على الإناث فى المهارات البصرية المكانية لا تعنى أن البنات غير قادرات على تنمية هذه المهارة بل على العكس كشفت العديد من الدراسات أن تدريب البنات على المهارات البصرية المكانية وإدخال بعض الأنشطة فى هذا المجال يساعدهن على تحقيق مستوى لا يقل كفاءة عن الذكور .

٢ – اهتمام الإعلام بتصحيح بعض الأفكار الخاطئة عند العامة مثل: أن الأولاد أفضل من البنات، أو أنهم أكثر ذكاءً . هناك قدرات يتفوق فيها الذكور على الإناث، وهناك قدرات أخرى يتفوق فيها الإناث على الذكور .

٣ – توعية الآباء والأمهات والدارسين والدارسات بأن معدلات النمو عند البنات تكون أعلى وأسرع من معدلات النمو عند الأولاد ، من ثم فإن تأخر الأطفال الذكور فى

بداية الكلام يكون أمراً طبيعياً، كذلك فإن تأخر بعض الأولاد الذكور فى عمليات القراءة يكون أيضًا أمرًا مقبولاً، إذا قورنوا بزملائهم الإناث، وإنهم يستطيعون ملاحقة هذا التأخر فيما بعد .

٤ – ضرورة إدراكنا لحقيقة هامة وهى أن هذا التفوق لا يكون تفوقًا مطلقًا، وإنما هو تفوق تعكسه متوسطات أداء كل من الذكور والإناث . وكما نعلم جميعًا لا يوجد شخص يحمل هذه القيمة . ويعنى ذلك ببساطة أنه يمكن أن نجد فتيات قدرتهن الحسابية والرياضية عالية جداً، كما يمكن أن نجد أولاداً ورجالاً قدرتهم اللغوية فائقة .

٥ – توجيه عناية الآباء والأمهات بأهمية التكافؤ فى معاملة أولادهم من الجنسين، وتوفير فرص متكافئة لكل منهما فى الأنشطة المختلفة .

٢ – الثقافة النفسية عن الطفل الرضيع :

ما أكثر البرامج التى يقدمها التليفزيون عن المرأة والطفل ، مع ذلك فإن الطفل الذى تهتم به برامج التليفزيون غالبًا ما يكون طفل المدرسة، أو طفل رياض الأطفال، أو الشباب من المراهقين والمراهقات . أما تثقيف الأم عن طفلها الرضيع فهو يعد غائباً تماماً عن وسائل الإعلام بصفة عامة، وبرامج التليفزيون بصفة خاصة . ويكاد ينحصر الدور التثقيفى من جانب التليفزيون للأم عن طفلها الرضيع فى توجيه انتباه الأم وتوعيتها بالأمراض المعدية التى يتعرض لها طفلها، وكيفية الوقاية منها، وطرق تطعيمه، والأمصال الواقية ضد بعض الأمراض المعروفة مثل: شلل الأطفال ، الحصبة ... إلخ .

مع ذلك فإذا انتقلنا إلى دائرة العلوم النفسية والبحوث الإمبريقية فيها، والتى خرجت عن الأطفال الرضع، فسوف نجد أنها تزخر بالعديد من الحقائق والمعارف التى يمكن أن تزود بها الأمهات عبر برامج التليفزيون، والتى من شأنها أن تساعد على تنمية قدرات الطفل العقلية ومهاراته الاجتماعية قبل دخول المدرسة . حينما نتحدث عن الثقافة النفسية عن الطفل الرضيع فإننا نقصد بالتحديد مدى تثقيف الأم ومدى وعيها

بالاحتياجات النفسية لطفلها الرضيع . من الخطأ الاعتقاد أن كل ما يحتاجه الطفل الرضيع من الأم هو مجرد إشباع حاجاته البيولوجية والعضوية ، إن دور الأم لا ينحصر فحسب - في هذه السن المبكرة - عند عمليات التغذية والإطعام والاستحمام وإعطاء الدواء، بل يمتد إلى ما بعد ذلك . إن عقل الطفل مثل جسمه يحتاج إلى من ينميه ويساعده على الارتقاء والازدهار (Mcshane, 1990) . وتلعب الأم بوصفها المسئول الأول عن رعاية الطفل دوراً هاماً في تنمية واستثارة العديد من حواس الطفل التي تمثل النافذة التي يطل منها على العالم من حوله . وتمثل حاستا السمع والإبصار دوراً أكثر أهمية في حياة الرضيع، باعتبارهما الرافدان الرئيسيان اللذان تتحدد من خلالهما كل من لغة الطفل وطرق تفكيره فيما بعد . وفيما يلي نقدم بعض الحقائق التي كشفت عنها البحوث الخاصة بالأطفال الرضع، خاصة فيما يتعلق بعمليات الإدراك السمعي والبصري لدى الطفل :

١ - كشفت البحوث الحديثة عن خطأ الاعتقاد أن الطفل لا يرى عند الميلاد ، فمنذ الأيام الأولى للميلاد يستطيع الوليد البشري رؤية الأشياء التي تقع أمام عينيه، ولكنه لا يرى كما يرى الكبار .

٢ - تأخذ قوة الإبصار في النمو سريعًا خلال الشهور الستة الأولى من الميلاد، وتصبح مكتملة النضج تماماً في نهاية العام الأول للطفل .

٣ - يستطيع الأطفال الرضع رؤية الأشياء التي أمامهم من مسافة حوالي ١٩ سم ، وتزداد هذه المسافة بالتدريج مع تقدم عمر الطفل لتصل إلى حوالي ٣٠ سم في سن شهور .

٤ - تتوقف قدرة الرضيع في الشهور الأولى من الميلاد على تثبيت عينيه معًا لمنبه ما على حجم المنبه المقدم وعلى المدة الزمنية لعملية التثبيت .

٥ - يبدأ جهاز السمع لدى الجنين في أداء بعض وظائفه قبل الميلاد ، مع ذلك فإن المدى الصوتي الذي يستجيب له الجنين يكون أقل من المدى الصوتي الذي يستجيب له بعد الميلاد .

٦ – عند الميلاد يكون جهاز السمع عند الوليد مكتمل النمو تمامًا، وذلك على عكس حاسة الإبصار .

٧ – يولد الجنين ولديه استعداد فطرى لالتقاط جميع الأصوات الموجودة فى جميع اللغات الموجودة فى العالم، وتعرف هذه الظاهرة باتساع المدى الصوتى للكلام عند الرضيع .

٨ – فى سن عشرة شهور يبدأ الرضيع فى التخلى عن إصدار الأصوات غير الموجودة فى لغته والاحتفاظ بالأصوات الموجودة فى لغته ، وتعرف هذه الظاهرة بضيق المدى الصوتى للكلام عند الرضيع .

المضامين العملية للثقافة النفسية للأم عن الطفل الرضيع :

١ – ضرورة تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة لدى بعض الأمهات بأن ما يحتاجه الطفل الرضيع هو مجرد إشباع حاجاته البيولوجية والعضوية .

٢ – أن عقل الطفل مثل جسمه يحتاج إلى من ينميه ويساعده على الارتقاء والازدهار .

٣ – أن تنوع الخبرات التى يتلقاها الرضيع عبر حواسه المختلفة يكون لها أثر فعال فى اللغة التى سينطق بها فيما بعد، ومشاعره وانفعالاته التى سيتواصل بها مع الآخرين .

٤ – توجيه نظر الأمهات والآباء لضرورة المبادرة بالتحدث مع الطفل الرضيع ، لتعويده على المناغاة وفهم ما يقال والتعبير عنه فيما بعد .

٥ – احتضان الطفل الرضيع وحمله بدرجة معقولة يمنحه شعوراً بالأمان ، خاصة أن الطفل قبل أن يعبر بالكلمات فإنه يفهم عبر منافذ أخرى ، منها تعبيرات الوجه ومدى التقارب الحسى والبدنى .

٦ – ضرورة الاستفادة من أوقات تناول الطعام أو تغيير ملابس الطفل الرضيع فى التحدث معه وتعريفه بأجزاء جسمه المختلفة ، وأدوات الطعام ، والأشياء التى تحيط به ... إلخ .

مفهوم زمن رد الفعل :

يعرف مفهوم زمن رد الفعل فى علم النفس بأنه الزمن الذى ينقضى بين حدوث المنبه وصدور الاستجابة . وبعبارة أخرى يمكن تعريف زمن رد الفعل بأنه السرعة التى نستجيب بها كأفراد للمنبهات التى تقع من حولنا . ويعتبر زمن رد الفعل من الموضوعات التى لها تاريخ طويل فى علم النفس، حيث بدأ الاهتمام بدراسته وقياسه منذ أواخر القرن التاسع عشر، واستخدمه الباحثون فى قياس العديد من العمليات الحسية والقدرات العقلية . وليس من قبيل الصدفة أن نجد أن مفهوم السرعة يعتبر من المفاهيم الرئيسية التى قامت عليها بعد ذلك اختبارات الذكاء ونظرياته (Anastasi, 19) .

مع ذلك إذا انتقلنا إلى واقع الحياة العملية التى نعيشها فى مصر فسوف نجد أن هذا المفهوم بعيد كل البعد عن سلوكياتنا . فكم من منبهات تقع حولنا تتطلب سرعة الاستجابة لها ولكن نتباطأ فى الرد عليها ، فجرس المدرسة فى الصباح يدق والتلاميذ تتباطأ فى الوقوف فى الطابور ، أبواق السيارات تعلو فى الشارع ويستمر المارة فى قطع الطريق، ساعة الجامعة تعلن انتهاء الوقت ويستمر المحاضر فى إلقاء محاضرته . نحن فى حاجة إلى توعية المواطن المصرى بمفهوم الوقت والزمن وكيفية الاستجابة فى الوقت المناسب ، إما بصورة مباشرة عن طريق بعض الإعلانات الموجهة مثل إعلانات تنظيم الأسرة ومحو الأمية ... أو بصورة غير مباشرة عن طريق الأعمال الدرامية التى يقدمها التليفزيون ، أو البرامج الثقافية مثل برامج المسابقات التى تخلو من وضع حد زمنى للمتسابقين للإجابة على الأسئلة .

الثقافة النفسية للأم عن الطفل المتعثر دراسياً :

على الرغم من الاهتمام الملاحظ فى الآونة الأخيرة من تناول برامج التليفزيون لبعض المشكلات التى يعانى منها الأطفال، مع ذلك فإن المشكلة التى تحظى بالاهتمام الأكبر هى مشكلة الطفل المعوق، سواء كانت نوع الإعاقات حسية ، حركية ، عقلية ... إلخ .

أما الأطفال المتعثرون دراسياً والذين يمثلون نسبة لا بأس بها من جمهور الأطفال داخل المدارس العادية فهى فئة مهملة، سواء كان ذلك من قبل المدرس فى المدرسة أو من قبل بعض أولياء الأمور الذين يكتفون بإعطاء بعض الدروس الخصوصية، شأنهم فى ذلك شأن باقى الأطفال، حيث أصبحت الدروس الخصوصية ظاهرة عامة ومنتشرة داخل جميع الأسر المصرية .

ولكن من هو الطفل المتعثر دراسياً ؟ وهل تعثره يكون فى جميع المواد ؟ وهل من حلول يمكن تقديمها للآباء والأمهات ومن يعمل فى حقل التعليم لمساعدة هؤلاء الأطفال؟ تكشف لنا نتائج البحوث الخاصة فى هذا المجال عن العديد من المعلومات والحقائق لهؤلاء الأطفال، والتى يمكن أن تقدم بصورة مبسطة عبر الإذاعة المرئية أو المسموعة .

من هذه الحقائق مثلاً :

١ – الطفل المتعثر دراسيًا هو طفل متوسط الذكاء، ولكنه يعانى من بعض الصعوبات فى بعض المواد الدراسية . فقد تكون لديه صعوبات فى القراءة ، صعوبات فى الحساب ، صعوبات فى الهجاء .

٢ – صعوبات القراءة لها مظاهرها المختلفة ، فقد تظهر فى شكل صعوبة قراءة كلمات منفصلة (التعرف على الكلمات) ، أو صعوبات فى قراءة وفهم نص مكتوب والإجابة على أسئلة هذا النص .

٣ – صعوبات الحساب لها أيضًا مظاهرها ، منها صعوبة فهم الإشارات الرياضية (الجمع ، الطرح ، الضرب ، القسمة) ، صعوبات فى فهم المسائل الحسابية اللفظية ، صعوبات فى العد والحساب ... إلخ .

٤ – تقف بعض العمليات المعرفية العليا وراء مشكلات التعثر الدراسى ، فقد يعانى الطفل من صعوبات فى عمليات الإدراك السمعى ، الإدراك البصرى ، القدرة على التركيز ، الانتباه ، التذكر ... إلخ .

٥ - من الممكن مساعدة هؤلاء الأطفال عبر برامج موجهة ، تقوم أساسًا على التقييم النفسى للعمليات المعرفية المختلفة، والتى يظهر فيها الطفل ضعفًا ملموسًا، وعمل برامج خاصة لتقوية هذه العمليات .

٦ - يلعب الآباء والأمهات والمدرسون والمدرسات فى المدرسة دورًا ملموسًا فى مدى نجاح هذه البرامج، حيث تقف اتجاهاتهم الإيجابية نحو الطفل ومساعدته فى متابعة وتنفيذ هذه البرامج دورًا هامًا فى التغلب على هذه المشكلات .

ثانيًا - البرامج الثقافية فى التليفزيون المصرى :

نتناول فى هذا الجزء تعريفًا عامًا بالبرامج الثقافية فى التليفزيون المصرى، والأهداف التى تسعى إليها هذه البرامج ، وما هى أنواع البرامج الثقافية، ثم نختتم هذا الجزء بتقديم ملخص عام للوضع الحالى للبرامج الثقافية فى التليفزيون المصرى، وذلك من خلال عرض بعض النتائج التى توصلت إليها إحدى الدراسات العلمية الحديثة.

تعريف البرامج الثقافية :

تعرف البرامج الثقافية بأنها البرامج التى يقدمها التليفزيون بغرض تنشيط موضوع أو فكرة ثقافية فى صورة تليفزيونية مقبولة ، تقوم على الإفادة من إمكانات الفن التليفزيونى ، وتتميز بالتحديد والتبسيط فى تقديم ثمرات الفكر والفن والعلم على أوسع نطاق (جاد ، ١٩٨٧) .

وتهدف البرامج الثقافية فى التليفزيون المصرى بوجه عام إلى تحقيق عدد من الأهداف أهمها :

١ - نشر الثقافة بهدف توسيع قاعدة المثقفين .

٢ - الانفتاح على الثقافات الأجنبية .

٣ – تعميق مفهوم الشخصية الذاتية المصرية .

٤ – توضيح وتبسيط صور التقدم العلمي .

وتنقسم البرامج الثقافية فى التليفزيون المصرى إلى أربع مجالات رئيسية هى :

١ – الثقافة الأدبية :

يقصد بها ما يقدمه التليفزيون من فنون الأدب . وتضم هذه الفئة من البرامج تذوق الجمال ، السلاسة فى اللغة العربية ، مناقشة قضايا الأدب .

٢ – الثقافة الفنية :

ويقصد بها التكامل الذى يحققه التليفزيون مع أجهزة الثقافة والفنون ، والترويج لهذه الأجهزة الثقافية والفنية بهدف ربط المشاهد بها . فهل يتكامل التليفزيون مع السينما والمسرح والصحف والمجلات والكتب والفنون التشكيلية والموسيقى ليفيد المشاهدين من فعالية كل منها ؟

٣ – الثقافة العلمية :

يقصد بها تبسيط العلوم الطبيعية والإنسانية وتطبيقاتها المختلفة فى الحياة بهدف التقارب بين أصحاب الثقافة العلمية والأدبية وبين المشاهد أو المتلقى .

٤ – المعارف العامة :

يقصد بها ما يقدمه التليفزيون فى برامجه من معلومات ومعارف عامة مبسطة تستهدف المشاهد العادى .

ويعنينا فى هذه المحاضرة من كل المجالات السابقة مجال الثقافة العلمية التى تقدمها برامج التليفزيون المصرى . يرى بعض الباحثين (زكريا ، ١٩٨٠) أن الإذاعة المرئية بحكم طبيعتها يكون دورها فى التثقيف العلمى محدوداً بالقياس بوسائل الإعلام الأخرى، مثل الصحافة المتخصصة أو الكتب، ويرجع ذلك إلى أن جمهور هذه الوسائط

يتألف كله من أناس تلقوا من قبل مستوى معين من الثقافة . وفى هذه الحدود لا يتوقع للإذاعة المرئية أن تسهم فى الارتفاع بالثقافة على مستوى الخلق والابتكار، ولكن إسهامها يكون فى حدود نشر الثقافة، وإذاعة المفاهيم والقيم التى تم إبداعها بالفعل . واتساقًا مع هذه الآراء كشفت إحدى الدراسات (جاد ، ١٩٨٤) عن أن الهدف الخاص بتوضيح وتبسيط صور التقدم العلمى والتكنولوجى وترسيخ أساليب التفكير العلمى جاء فى الترتيب الرابع من حيث أولوية الأهداف التى تسعى إليها البرامج الثقافية فى التليفزيون المصرى، وأن الهدف الرئيسى لهذه البرامج دائمًا يتجه نحو توسيع قاعدة المثقفين ونشر الثقافة بين المواطنين .

وإذا حاولنا أن نقيم الوضع الحالى للبرامج الثقافية عمومًا، وبرامج الثقافة العلمية بصفة خاصة التى يقدمها التليفزيون المصرى، فإنه يمكن الرجوع إلى إحدى الدراسات الحديثة التى نشرت فى أواخر التسعينيات (حمزة ، ١٩٩٦) عن البرامج الثقافية فى التليفزيون المصرى .

وفيما يلى نعرض لأهم النتائج التى توصلت لها هذه الدراسة :

١ – تحتل الموضوعات الخاصة بالفن والسمع والموسيقى الجانب الأكبر من اهتمام البرامج الثقافية، حيث تصل إلى حوالى ٣٨,٥٪ من موضوعات البرامج الثقافية، بينما تحتل الموضوعات الخاصة بالعلم والتكنولوجيا نصف هذه النسبة حوالى ١٩,٣٨٪.

٢ – البرامج الثقافية فى التليفزيون المصرى غير جذابة شكلاً ومضمونًا .

٣ – ضيوف البرامج مكررون ، الموضوعات مكررة ، التقديم تقليدى وغير جذاب .

أما عن الوضع الحالى للثقافة النفسية فى برامج التليفزيون المصرى ، فلا توجد بين أيدينا أى دراسات إمبريقية حول هذا الموضوع . مع ذلك فهناك بعض الحقائق التى يمكن الوصول إليها من خلال مسح خريطة البرامج الثقافية التى قدمها التليفزيون المصرى فى شهرى يوليو وأغسطس عام ٢٠٠٠ هذه الحقائق هى :

١ – عدم وجود برنامج بعينه يختص بتقديم الثقافة النفسية فى التليفزيون المصرى .

٢ – إن الثقافة النفسية غالبًا ما تقدم بصورة ضمنية فى بعض البرامج التى توجه للمرأة ، الشباب ، الأطفال .

٣ – لا يوجد إعداد مسبق لمادة علمية تندرج تحت مفهوم الثقافة النفسية، ولكن ينحصر المجال فى طرح بعض القضايا والمشكلات التى تهم الجماهير مثل: مشكلة الطفل المعوق ، مشكلة تعاطى المخدرات ، مشكلة الامتحانات ... إلخ .

الأسباب التى تعوق الثقافة العلمية عموماً، والثقافة النفسية بصفة خاصة، من النفاذ إلى عقل ووجدان المثقف فى مصر :

من حق المثقف فى مصر ، بل ومن حق المواطن العادى، أن يعرف ما توصل إليه الباحثون فى مجال العلم عمومًا . إن تقديم بعض المعلومات والحقائق التى توصلت إليها البحوث العلمية عبر وسائل الإعلام، خاصة التليفزيون، من شأنه أن يترك أثرًا فعالاً وإيجابيًا عما يقدمه العلم من حقائق ومعارف يمكن أن يستفيد بها الجمهور المتلقى للرسالة الإعلامية . علينا أن نعترف أن المواطن العادى لا يستسيغ الحقائق العلمية إذا قدمت له فى شكل مجرد وجاف ، أما إذا قدمت له بشكل مبسط وغير مباشر فإنه يتلقاها بصورة أفضل .

ففى دراسة مسحية أجرتها إحدى المجلات العلمية المختصة بالبحث العلمى، وهى مجلة American Scientist، حول صورة العلم عند العامة فى الولايات المتحدة الأمريكية (Hively, 1989)، كشفت نتيجة هذه الدراسة عن وجود تباعد كبير بين إدراك العالم وإدراك المواطن العادى لمفهوم العلم، وما يحمله هذا المفهوم من مضامين مختلفة . وبعد خمس سنوات من هذا المسح نشرت الهيئة القومية للبحوث العلمية فى أمريكا (National Science Board)، فى عددها السنوى، موضوعًا حول أهم مشكلات البحث الأكاديمى فى أمريكا، كانت أهم المشكلات التى وردت فى هذا التقرير هو عدم فهم الجمهور فى أمريكا للدور الذى تؤديه البحوث العلمية . بالطبع فإن ما يصدق على

البحوث العلمية عمومًا يصدق على البحوث النفسية ، فهناك العديد من البحوث التى أجريت فى أمريكا وفى مصر عن صورة علم النفس لدى العامة، وكشفت هذه البحوث جميعًا عن قصور فى فهم وتذوق البحوث النفسية (Benjamin, 1986, Cialdini 1997) .

والسؤال الآن: ما هى الأسباب التى تكمن وراء عدم نفاذ الثقافة العلمية عمومًا والثقافة النفسية بوجه خاص إلى عقل ووجدان المثقف العادى فى مصر ؟ فيما يلى نقدم مجموعة من الأسباب بعضها يرتبط بنا نحن المتخصصين والمشتغلين بالعلوم النفسية، والبعض الآخر يرتبط بطبيعة الجهاز الإعلامى والعاملين فى هذا المجال .

فيما يتعلق بالنوع الأول من الأسباب والتى تختص بنا نحن المشتغلين فى العلوم النفسية ، فإننا نلاحظ بوجه عام أن هناك اتجاهًا لتحاشى كثير من المتخصصين والعلماء لأجهزة الإعلام وإحجامهم عن الظهور فى برامج التليفزيون بشكل خاص ، مما هيأ المناخ لمن هو غير متخصص للظهور بدرجة أكبر والتحدث عن قشور العلم بدلاً من التعمق فى جوهره . أما **لماذا يحجم العلماء والمتخصصون فى علم النفس عن الظهور فى وسائل الإعلام،** فإن ذلك يرجع لعدة عوامل لخصها ماكول وستوكينج (Mc Call & Stocking, 1982) :

١ – اعتقاد كثير من العلماء والمتخصصين بأن التعاون مع أجهزة الإعلام يكون محفوفًا بالمخاطر والمحاذير، حيث يميل الإعلاميون إلى تبسيط الحقائق أكثر مما يجب بحيث تصل المعلومة مبتورة أو مشوشة فى بعض الأحيان .

٢ – يبدو أن هناك فجوة بين طبيعة الرسالة الإعلامية وحقيقة البحث العلمى . فهناك اختلاف فى تعريف كل من العلماء والإعلاميين حول بعض المحكات الخاصة بمضمون الرسالة الإعلامية . فبينما يهتم كل من العلماء والإعلاميين بدقة وثبات وصدق ما يقدم، مع ذلك فإن هناك اختلافًا فيما بينهم فى تعريف هذه المفاهيم، فبينما يعرف العلماء الدقة بمدى صدق وموضوعية وثبات النتائج البحثية التى يمكن الوصول إليها عند إعادة إجراء البحث مرة أخرى، فإن الدقة والصدق عند الإعلاميين تعنى نقل ونشر الأخبار كما وردت من مصادرها ، بصرف النظر عن صحة هذا المصدر .

٣ - يعتقد بعض العلماء فى مجال علم النفس أن المعرفة السيكولوجية هى معرفة ترتبط بسلوك الفرد وتكوين شخصيته ، وأن وسائل الإعلام غالبًا ما توجه إلى اتباع وتنفيذ سياسات بعينها . من ثم فإن نشر المعرفة السيكولوجية ليس مكانه الصحافة أو الإذاعة أو التليفزيون وإنما مكانه المجلات العلمية المتخصصة .

والسبب الآخر فى عدم وصول الحقائق العلمية إلى المتلقى للرسالة الإعلامية يرجع إلى استخدام بعض العلماء والمتخصصين لبعض المصطلحات العلمية التى من الصعب على الجمهور فهمها ، ويتصورون خطأ أنهم يتحدثون لغة سهلة وبسيطة وسلسة . إن مسئوليتنا كباحثين وعلماء فى مجال علم النفس تكمن فى الكيفية التى يمكن أن ننقل بها للجمهور عبر وسائل الإعلام مجالات وموضوعات علم النفس بصورة ميسرة وسهلة ودقيقة ، دون تشويش أو تحريف فى مضمونها العلمى .

نأتى بعد ذلك إلى الأسباب التى تتعلق بالإعلام والإعلاميين .. هناك مجموعة من الأسباب التى تقف وراء عدم وصول الثقافة العلمية عمومًا والثقافة النفسية خصوصًا إلى الجمهور العام . ترتبط هذه الأسباب فى مجموعها بطبيعة الجهاز الإعلامى فى مصر ومدى فهم العاملين فى الجهاز الإعلامى للأدوار الملقاة على عاتقهم . فيما يلى نقدم لبعض هذه الأسباب :

١ - طبيعة الجهاز الإعلامى فى مصر :

علينا الاعتراف بأن الإعلام فى مصر هو إعلام حكومى أكثر منه إعلام خاص ، من ثم فإن ما يقدمه الإعلام المرئى أو المسموع إنما يعكس اهتمامات بعينها أكثر مما يعكس ما توصلت إليه البحوث العلمية الحديثة .

٢ - اختيار الموضوع :

غالبًا ما يختار الإعلاميون الموضوعات التى ترتبط بأحداث الساعة أو التى تلقى إقبالاً جماهيرياً، وذلك بصرف النظر عما إذا كانت هناك حقائق علمية ترتبط بهذه

الوقائع أو الأحداث أم لا . وعلى العكس فإن العلماء عندما يختارون موضوعات بحثهم فإنهم يختارونها حسب حاجة التراث النظرى إلى إجراء مثل هذه البحوث، ولا بأس أن تكون لهذه البحوث عدد من المضامين العملية التى يمكن الاستفادة بها .

٣ – عدم الإعداد الجيد للبرامج :

تفتقد البرامج الثقافية فى مجملها إلى الإعداد الجيد من جانب المسئولين عنها، حيث يقتصر الإعداد فى كثير من البرامج على وضع مجموعة من الأسئلة وتوجيهها إلى ضيف البرنامج، أو النزول بالكاميرا إلى الشارع المصرى وتوجيه أسئلة ثقافية عامة لجمهور المواطنين، والتى تكشف عن ضحالة المستوى الفكرى والثقافى لدى العامة.

٤ – عوامل فنية وتكنولوجية :

تتدخل بعض العوامل الفنية والتكنولوجية فى تشويه ما يقدم من مادة علمية مثل : تدخل أعمال المونتاج فى حذف بعض الأجزاء من البرنامج . كذلك لا تستفيد برامج الثقافة العلمية عموماً من الإمكانات الضخمة للتليفزيون من حيث الإبهار والجاذبية . فمازالت هذه البرامج تقدم بصورة تقليدية وغير جذابة .

وفى النهاية نقدم مجموعة من التوصيات الخاصة بكيفية الارتفاع بمستوى البرامج الثقافية عموماً، والثقافة العلمية بوجه خاص، بحيث يتحقق لها أقصى غايات الاستفادة . هذه التوصيات لا تتعلق فحسب بالإعلام والإعلاميين، ولكنها تتعلق أيضاً بضيوف الإعلام من المتخصصين فى مجالات العلم المختلفة، كما تتعلق بالمتلقين للرسالة الإعلامية :

١ – ضرورة وضع خطة إعلامية طويلة المدى للبرامج الثقافية تحدد أولويات أهدافها وكيفية تنفيذ هذه الأهداف .

٢ – تحديد نوعية الجمهور المستهدف لكل برنامج، وتقديم مادة علمية ملائمة لهذا الجمهور .

٣ - حتمية أن يكون إعداد البرنامج من الكتب العلمية وليس من الجرائد والمجلات، لضمان سلامة ما يقدم .

٤ - الابتعاد عن استخدام المصطلحات العلمية الجافة والمعقدة، وضرورة تقديم المادة العلمية بشكل مبسط دون الإخلال بالحقيقة .

٥ - ضرورة التركيز على كيفية الاستفادة الحياتية من الحقائق العلمية الموجودة فى التراث .

٦ - على الآباء والأمهات ألا يتصوروا أن التليفزيون هو بمثابة حاضنة لأبنائهم، بحيث يترك الأولاد بالساعات الطويلة دون التحكم فيما يشاهده الطفل من برامج ومسلسلات .

٧ - ضرورة أن يناقش الآباء والأمهات أبناءهم فيما يشاهدونه من برامج ومسلسلات، وذلك لتفسير ما لم يستطيعوا فهمه .

٨ - ضرورة الإشراف العلمى على بعض الأعمال الدرامية التليفزيونية التى تتناول موضوعاً أو قضية تدخل فى إطار العلوم النفسية .

وخلاصة القول، إن الإذاعة المرئية لن تستطيع أن تقوم بدور فعال فى ميدان الثقافة العلمية عموماً والثقافة النفسية على نحو خاص ما لم يكن هناك مضمون ثقافى علمى واضح فى برامجها، وتكون هناك خطة إعلامية محددة المعالم واضحة الأهداف، قادرة على الاستفادة من كل الطاقات البشرية والتكنولوجية فى هذا المجال .

المراجع العربية

١ - جاد ، سهير (١٩٨٧)، البرامج التليفزيونية والإعلام الثقافى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٢ - جاد ، سهير (١٩٨٤)، البرامج الثقافية فى التليفزيون ، دراسة فى تحليل المضمون ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الإعلام .

٣ - حمزة ، زينب جيلان عبد اللطيف (١٩٩٦)، دور البرامج الثقافية فى التليفزيون المصرى فى التنمية الثقافية ، دراسة تطبيقية على القناة الثانية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الإعلام .

٤ - زكريا ، فؤاد (١٩٨٠)، الإذاعة المرئية والثقافة العربية المعاصرة ، بحث فى حلقة الإذاعة المرئية وآثارها الاجتماعية فى الوطن العربى .

٥ - صادق ، سمير حنا (١٩٩٨)، عبق العلم : كتابات عن العلم والوطن ، المجلس الأعلى للثقافة .

المراجع الأجنبية

1 - Anastasi, A. (1988). Psychological testing (6 th ed) New York Macmillan.

2 - Benjamin, L.T. (1986). Why do not they understand us ? A history of psychology's public image. American psychologist, 41, 9, 941 - 946.

3 - Cialdini. R.B. (1997). Professsionally responsible communication with the public : Giving psychology a way. Personality & Social psychology Bulletin 23, 7, 675 - 684.

4 - Halpern, D. F. (1982) . Sex differences in cognitive abilities. Hilsdale , N. J. Erlbaum.

5 - Halpern, D.F. (1997). Sex differences in intelligence implications for education. American psychologist 52, 10, 1091 - 1103.

6 - Hively, W. (1989). Surveys probes tensions between science and democracy, American Scientist 77, 24 - 26.

7 - Mccall, R.B. & Stocking S.H. (1988) Between Scientists and Public. American psychologist, 37, 9, 985 - 995.

8 - McShane, J. (1991) . Cognitive Development An information processing approach. London Basi Black Well Inc.s

9 - Robert, B.C. (1997). Professionally responsible communciation with public. Giving psychology a way. Social sciences : Personality & Social psychology Bulletin, 23, 675 - 679

10 - Warrick, D.P. & Nagliere. J.A. (1993) Gender differences in planning, attention simultancous and successive (PASS) cognitive processes. Journal of Educational Psychology, 85, 693 - 703.

علم النفس والصناعة

محمود السيد أبو النيل

أيها السيدات والسادة :

لم أود أن أذكر لحضراتكم أننى فى البداية وعندما فكرت فى وضع مخطط لهذه المحاضرة ، والتى سنلقيها ، الآن انتابنى شعور بالحيرة مصدره تعدد المداخل التى يمكن تناول موضوعنا من بين واحد منها لكن سرعان ما زالت حيرتى وتبدد ترددى عندما استحضرت فى ذهنى الجمهور المتلقى، وما تسعى إليه لجنة علم النفس برئاسة العالم الجليل الأستاذ الدكتور / مصطفى سويف من نشر للثقافة النفسية فى المجتمع، من خلال عدد من الآليات على رأسها تلك السلسلة من المحاضرات .

وأعترف منذ البداية أن اختيارى لهذا المدخل (علم النفس الصناعى والتنظيمى) يعطى فكرة متكاملة عن نواتج هذا العلم والمتمثلة فى "علم النفس والصناعة" ،إذ إن تناول علم النفس الصناعى والتنظيمى كمدخل لنا يمثل تناولاً لآليات تطبيقات علم النفس فى الصناعة ، ويقتصر الأمر فى هذا الصدد العروج لتلك الآلية لنتناول بإيجاز بعض قضايا هذا العلم التى تمثل الركائز الأساسية فيه، وفى إعداد من يقومون بشأنه فى المصانع ومختلف المؤسسات ، إذ إنه (أى علم النفس الصناعى) يعتبر المنظومة التى من خلالها تتفق تلك التطبيقات وتلك الخدمات التى تقدم للعاملين فى الصناعة ، إذ إن تناول التطبيقات دون الآليات الفاعلة والمؤدية لهذه التطبيقات بتر لجزء كبير من السياق ، إذ سيكون الأمر كأننا نجيب عن ماذا نفعل ؟ وليس عن كيف نفعل ؟

كما أود أيها السيدات والسادة أن أشير، أولا وقبل كل شيء، أن لدى يقيناً أنه يمكن لغيرى ممن تتوفر لديه قاعدة معلومات أكبر وأعمق أن يكون تناوله لهذا الموضوع أشمل من تناولى له ، ومع هذا وفى ضوء التكليف الذى شرفت به من لجنة علم النفس فقد كان الدافع عندى كبير وحماسى به شديد، إذ أعتبر من بين المهتمين بعلم النفس والصناعة عملا وبحثًا وتطبيقًا منذ عام ١٩٦٢ وحتى الآن .

وفى إطار هذه المقدمة التى أعتذر لحضراتكم لطولها نركز كلامنا على ما يأتى :

أولا – قضايا أساسية .

ثانيا – علم النفس الصناعى فى مصر .

ثالثا – التغيرات فى السياق : الموقف الراهن والمستقبل .

أولا – قضايا أساسية :

ونتناول فيما يلى أيها السيدات والسادة عدداً من القضايا التى نرى أنها تختص بإكساب المتخصصين فى علم النفس الصناعى الكثير من المهارات ، والتى على رأسها الالتزام والموضوعية والاستفادة من الخبرة السابقة للأخرين وغير ذلك ، وهذه القضايا تتعلق بما يلى :

١ – المفهوم .

٢ – النشأة .

٣ – إعداد الإخصائى النفسى الصناعى والتنظيمى .

١ – المفهوم :

شدتنى تلك الجملة القصيرة التى أوردها سبكتور Spector Paul E. فى كتابه "علم النفس الصناعى والتنظيمى" عام (١٩٩٦) ، ووجدت أنها على بساطتها أنسب ما أبدأ

به حديثى وهى :" نحن اليوم نعيش فى عالم الصناعة"، حيث يكون الناس بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على اتصال يومى بالمؤسسات والشركات الصناعية التى تقدم لهم الخدمات أو تنتج لهم الكثير من السلع والمنتجات كالسيارات والملابس والالكترونيات والأثاث والأدوية والكثير من الأغذية المصنعة . ونحن بلا شك نستمتع بما تخرجه لنا الصناعة ونبتهج بها فى كل مرة نلبس الجديد أو نخرج للنزهة داخل سيارة فارهة أو نبتلع دواءً يخلصنا من ألم بدنى أو نفسى ، لكننا مع هذا نكون فى هذه اللحظات، لحظات السعادة، أبعد ما نكون عما أصاب العامل الذى أنتج هذه الأشياء من تعب وسأم وملل ، وأتمنى أن حضراتكم ستكونون معى فى هذه الرحلة – المحاضرة – مستمتعين بها تاركين هذه الهموم لهؤلاء العمال الذين يعملون فى هذه الشركات الصناعية بأعداد تصل إلى مئات الآلاف بل الملايين، والذين يكونون فى حاجة لمساعدة الكثير من المتخصصين لإدارة شئونهم فى العمل بطريقة سهلة وسوية . وغالبًا ما يكون هؤلاء المتخصصون الذين تلجأ إليهم تلك المؤسسات والشركات الصناعية هم الذين يعملون فى مهنته الاخصائى النفسى الصناعى التنظيمى ، وذلك لمساعدتها فى حل مشكلات عمالها وموظفيها من خلال :

١- البحث .

٢ – التطبيق .

وذلك بقيام المتخصصين فى مجال علم النفس الصناعى سواء كانوا استشاريين أو غير ذلك بإجراء البحوث والدراسات الخاصة بمشكلات العاملين ، كالغياب والحوادث والتمارض، وإساءة استخدام الآلة والمواد ، وانخفاض الكفاية الإنتاجية ، وتطبيق نتائج هذه الدراسات والمرتبطة بالجانب الإنسانى على العاملين، وذلك من خلال اهتمام المتخصصين بتطوير وتطبيق الأسس العلمية فى بيئة العمل . ونلمح فى مفهوم علم النفس الصناعى التنظيمى أنه يتناول جانبين كبيرين وهما :

١- الصناعى .

٢- التنظيمى .

وعلى الرغم مما نجده من تداخل بين هذين الجانبين للدرجة التى لا يمكن الفصل بينهما بسهولة ، فإن كل جانب منهما قد ينبع من خلفية مختلفة فى تاريخ هذا العلم ،

فعلم النفس الصناعى ، كما سنرى بعد ذلك ، كان الاسم السابق لذلك الفرع والذى وقع على عاتقه تبنى معالجة الجوانب الإدارية للكفاية الإنتاجية الخاصة بالقوى العاملة فى الصناعة ، وفى هذا الصدد يتم الاهتمام بالإعداد الكفء لبيئة العمل واختيار العاملين وتدريبهم وقياس أدائهم . أما علم النفس التنظيمى فقد نما من خلال حركة العلاقات الإنسانية Human Relaions، والتى تركز على الجوانب الإنسانية ، وعلى حاجات الفرد الموظف ، وإضافة لذلك يكون محط اهتمام علم النفس التنظيمى فهم السلوك وقياس اتجاهات العمال والمشرفين (Spector. 1996, P.5).

وواضح مما سبق أنه ليس من السهل تمييز الموضوعات وتصنيفها لما هو صناعى ولما هو تنظيمى ، فالدوافع على سبيل المثال ترتبط بالجانب الصناعى من حيث دورها فى زيادة أداء العمل ورفع كفاءته الإنتاجية ، كما ترتبط فى نفس الوقت بالجانب التنظيمى لدورها الكبير فى رضا العمال وسعادتهم وتوافقهم النفسى الاجتماعى . وفى ضوء صعوبة الفصل بين الصناعى والتنظيمى نجد أنهما يتضمنان معا وبوضوح الخطوط العريضة لميدان علم النفس الصناعى والتنظيمى .

٢ - النشأة:

أيها السيدات والسادة بعد أن تناولنا بإيجاز مفهوم علم النفس الصناعى والتنظيمى يجدر بنا أن نتكلم عن بدايات هذا العلم، أى نشأة وتاريخ علم النفس الصناعى والتنظيمى وذلك على حد قول ستاجنر Stagner : " إن إعادة ذكر ذلك التراث يكشف لنا أن المشاكل الكبرى التى نعيشها اليوم كانت ذات اهتمام كبير فى ذلك الوقت ". وتعتبر بدايات هذا العلم موضوعًا مثاراً للجدل، إذ من الصعب عزو نشأته لفرد معين (Stagner, 1982, P.892)، وبتتبع هذه النشأة نجد أن هناك اسمان لعالمين شهيرين هما :

١ - والتر دل سكوت Walter Dill Scott.

٢ - هيوجومنسر برج Hugo Munsterberg.

وهما يعتبران لشهرتهما وصيتهما "آباء" Fathers لهذا العلم لدرجة أن مناقشة أيهما له السبق أمر لا قيمة له (Spector) ، فكلاهما متخصصان فى علم النفس التجريبى، واهتما بتطبيق أسس علم النفس على مشكلات العمل . ويكفى فى هذا المقام التعريف بإيجاز بالدور البارز الذى قام به كل منهما فى ضوء حاجات هذه المحاضرة ، ففى ٢١ ديسمبر عام ١٩٠١ قام سكوت أستاذ علم النفس فى جامعة نورث ويسترن .North Western U بإجراء عدد من الدراسات عن علاقة علم النفس بالإعلان ، كما قام بنشر العديد من البحوث والكتب التى كشفت عن نظرية نفسية فى الإعلان Advertisement وأسس تطبيقها . وبعد ذلك طور "سكوت" مجالات اهتمامه لتشمل العمل والعمال ، وأودع فكره هذا فى كتابه "العمل والناس" ، تناول فيه بالتفصيل الدوافع لدى المستهلكين والبائعين والموظفين .

ولقد أثرت كتابات "سكوت" على عمل "الأب الآخر" المنشىء لعلم النفس الصناعى والتنظيمى وهو منستربرج . فبعد هجرة منستربرج من ألمانيا للولايات المتحدة عمل مديراً لمعمل علم النفس بجامعة هارفارد، فقام بإجراء الدراسات التى سعت للكشف عن العوامل النفسية المرتبطة بمشكلات العمل وتطبيقها فى المجال الصناعى فى منطقة مدينة بوسطن Boston عاصمة ولاية ماساشوستس . وكانت من أعمال منستربرج المشهورة دراسة حول إعداد اختبار لاختيار عمل كهرباء السيارات ، والتى أكد فيها فى ذلك الوقت على قيمة صدق المحكات العملية .

أما الشخص الثالث الذى يعتبر أيضًا "أبًا" لعلم النفس الصناعى فهو جيمس ماكين كاتل James mcKeen Cattell ، وهو عالم نفسى ذاعت شهرته فى القياس النفسى من خلال صياغته لمصطلح "الاختيار العقلى" ، كما رأس قسم علم النفس فى جامعة كولومبيا ، حيث أجرى خلال وجوده بها كثيراً من البحوث النفسية ، وأنشأ بعد ذلك المؤسسة النفسية Psychological corporation ، وهى مؤسسة تقوم بعمليات الإرشاد والخدمات النفسية فى أمريكا (Miner, 1992, P.18).

أيها السيدات والسادة بعد ذلك يبرز لنا سؤال قد يكون معززًا لما سبق أن طرحناه من أن مشكلات اليوم فى الصناعة كانت ذات اهتمام كبير فى الماضى ، والسؤال هو : ما هى الأحداث الكبرى فى تطور علم النفس الصناعى التنظيمى ؟ ويبين الجدول (١) هذه الأحداث .

جدول (١)
الأحداث الكبرى فى تطور علم النفس والصناعة

السنة	الحدث
١٩١٣	نشر أول كتاب عن علم النفس والكفاية الصناعية لمنستربرج.
١٩١٧	إعداد اختبارات نفسية خاصة بالعمل : أرمى ألفا ، أرمى بيتا .
١٩٢١	(*) منح أول رسالة دكتوراه فى علم النفس الصناعى . (*) نشأة المؤسسة النفسية .
١٩٢٤	بدء دراسات الهاوثورن.
١٩٣٦	قيام اتحاد خاص بالإخصائيين النفسيين فى تخصص علم النفس الصناعى.
١٩٣٧	إنشاء الشعبة D باسم الصناعى والعمل كواحد من أربع شعب فى الجمعية الأمريكية لعلم النفس الصناعى .
١٩٤١	بدء الجهود الخاصة بالحرب العالمية الثانية .
١٩٤٥	صارت الشعبة D القسم رقم ١٤ فى جمعية علم النفس الأمريكية APA باسم : علم النفس الصناعى والعمل .
١٩٥١	اختيرت ماريون أ. بلز Marion Abills كأول امرأة ترأس القسم رقم (١٤).
١٩٦٢	تم رفع كلمة (عمل) من اسم القسم ١٤ ، وصار اسمه قسم علم النفس الصناعى.
١٩٦٤	صدور قانون الحقوق المدنية .
١٩٧٠	عرض جمعية علم النفس الأمريكية اسم علم النفس الصناعى التنظيمى .
١٩٧٣	تم إضافة كلمة (تنظيمى) وأصبح اسم القسم ١٤ قسم علم النفس الصناعى والتنظيمى .
١٩٩١	صدور الوثيقة الخاصة بالعجزة (ADA) .

ومن أهم الأحداث الكبرى فى تطور علم النفس الصناعى التنظيمى :

١ - الحرب العالمية الأولى :

ظهرت الإسهامات الكبرى فى مجال علم النفس الصناعى التنظيمى خلال الحرب العالمية الأولى عندما واجه الجيش الأمريكى مشكلة كيفية تصنيف واختيار ملايين الأفراد والذين سيلحقون بالخدمة العسكرية ، وبمدارس الضباط ، والذين سيلحقون أيضًا بمراكز التدريب المهنى والفنى . وعلى إثر ذلك قامت جماعة من السيكلوجيين (Miney, 1992) بقيادة روبرت يركز Robert Yerks بإعداد اختبار قصير عرف باسم Army Alpha، أجرى عليه أرثر اوتيس Arthur Otis الكثير من الدراسات أصبح بعدها أول اختبار جمعى Group Test .

وظهر أثناء تطبيق اختبار Army Alpha أن بعض المجندين يحصلون على درجة منخفضة جدًا (صفر) ، وبالبحث وجد أن هؤلاء المجندين لا يعرفون القراءة والكتابة illiterate ، فى حين أن ألفا .A.A يتطلب الأداء عليه قدرًا من التعليم . وقد أدى ذلك بالسيكلوجيين إلى التفكير فى إعداد اختبار آخر ملائم لهؤلاء المجندين ، فكان اختبار Army Beta ليطبق على غير القادرين على القراءة والكتابة ، وعلى المهاجرين إلى الولايات المتحدة .

ولقد لعب هذا الأمر دورًا كبيرًا فى ضرورة دعم استخدام الاختبارات الأدائية فى المجال الصناعى على الأميين لتوجيههم فى المهن المناسبة لقدراتهم إلى حين تعليمهم . وفى مجال علم النفس عبر الحضارى أيضًا لصلاحية هذه الاختبارات للاستخدام على أبناء الثقافات المختلفة .

٢- فترة ما بين الحربين :

ازدهر علم النفس الصناعى والتنظيمى خلال فترة ما بين الحربين ابتداء، من عام ١٩٢٠، ونرصد فى إطار ذلك الملامح الآتية :

أ – إنشاء أقسام القوى العاملة بشركات الصناعة .

ب – بدء ظهور مؤسسات الإرشاد .

جـ – مناقشة أول رسالة دكتوراة فى علم النفس الصناعى والتنظيمى .

د– تأسيس المكاتب الاستشارية .

هـ – تجار الهاوثورن .

ومن أولى معالم ازدهار علم النفس الصناعى :

أ – أن أنشئت لأول مرة أقسام للقوى العاملة بكثير من الشركات ، كما بدأت بعض الكليات والجامعات بتوفير التعليم والتدريب فى هذا الجانب .

وثانى ملامح ازدهار علم النفس الصناعى التنظيمى :

ب – بدء ظهور مؤسسات الإرشاد ، وكانت أول هذه المؤسسات شركة "سكوت" Scott Company، والتى قام بتكوينها مجموعة من الأفراد الذين عملوا فى اختبار ألفا A. Alpha ، واختبار بيتا A. Beta خلال سنوات الحرب العالمية الأولى ، وتعتبر رسالة دكتوراة .

جـ – بروس مور ثالث مظاهر ازدهار علم النفس الصناعى ، ففى عام ١٩٢١ حصل مور Bruce V. Moore على أول دكتوراة فى الفلسفة فى علم النفس الصناعى من جامعة Ben State university .

د– كما أسس الأخصائيون النفسيون فى علم النفس الصناعى المكاتب الاستشارية , والتى تقدم الخدمات بمقابل للشركات الصناعية . وتعتبر المؤسسةالسيكلوجية Psychological Corp. واحدة من هذا المؤسسات والتى أسسها جيمس ماكين كاتل James McKeen Cattell عام ١٩٢١ والموجودة إلى يومنا هذا (Spector, 1996) . وفى نهاية عام ١٩٢٤ بدأت سلسلة تجارب الهاوثورن Hawthom Experiment .

هـ - فى شركة ويسترن إلكتريك قرب مدينة شيكاجو ، والتى هدفت إلى دراسة أثر العوامل الفيزيقية كالإضاءة على إنتاجية العمال فكشفت هذه التجارب عن أن الإنتاجية ترتبط بالعلاقات الاجتماعية وبالحالة الانفعالية للعاملين .

وفى هذه التجارب تم زيادة الإضاءة لمعرفة تأثير ذلك على إنتاجية العامل، فلم يكن لذلك إلا تأثير ضئيل ، وأرجعت الزيادة فى الإنتاج أحياناً لمعرفة عمال التجربة أنهم محل بحث رسمى ذلك " تأثير الهاوثورن Hawthorn effect " والذى يؤدى إلى زيادة الأداء ، ومهما يكن فإن السبب يبدو واضحاً من أن العوامل الاجتماعية - كما سبق الإشارة - يمكن أن تكون أكثر أهمية من العوامل الفيزيقية فى أداء الأفراد (Spector, 1996) .

وقد أدت هذه الدراسات إلى ظهور حركة العلاقات الإنسانية Human Relations فى الصناعة بالولايات المتحدة الأمريكية ، والتى وضعت الأساس لما يسمى الآن - كما سبق الإشارة - بالسلوك التنظيمى Organizational Behavior (Miner, 1992) .

٣ - الحرب العالمية الثانية :

استدعى الأخصائيون النفسيون فى الحرب العالمية الثانية لتقديم المساعدة فى حل المشكلات التى واجهت القوات المسلحة لاختيار المتقدمين للتجنيد من المتطوعين وغيرهم ، وكانت المهمة التى أمامهم أكثر صعوبة مما كان فى الحرب الأولى للزيادة الكبيرة فى أعداد المتقدمين من الفنيين والمتخصصين ، مما تطلب إعداد الكثير من الاختبارات النفسية ، والتى تم تقتينها للاستخدام بعد ذلك فى المجال الصناعى .

ويحسب لهذه الفترة الكثير من الفضل إذ تركت الكثير من البصمات والتأثير فى العديد من الجوانب فى علم النفس الصناعى التنظيمى ، كالتعليم

والتدريب ، والهندسة البشرية ، تلك الأخيرة التى كان لها كبير الأثر فى تصميم كثير من الأجهزة والمعدات العسكرية ، وتعليم العسكريين كيفية إعدادها (Miner, 1992) .

٤ - ما بعد الحرب العالمية الثانية :

وبعد الحرب العالمية الثانية واصل علم النفس الصناعى التنظيمي تطوره ، وتغير اسم قسم علم النفس الصناعى Industrial Psychology Division فى جمعية علم النفس الأمريكية (APA) إلى اسم علم النفس الصناعى والتنظيمى Industrial organization Psychology . وتعتبر الحادثة الأخرى التى ساعدت على تكوين فرع علم النفس الصناعى والتنظيمى صدور وثيقة الحقوق المدنية The Civil Rights Act of 1964. والتى كان لها كبير الأثر فى أسلوب معاملة الناس وفى توظيفهم . إذ أنه وفقًا لهذه الوثيقة صار التمييز بين الناس فى الحقوق والعمل غير قانونى ، ونتيجة لذلك أخذت الكثير من المؤسسات فى تغيير الكثير من لوائحها الخاصة بالتوظيف والاختيار المهنى . وقد ساعد الاخصائى النفسى الصناعى التنظيمى فى تطوير إجراءات الإرشاد والاختيار للعمل على عدم التمييز بين المتقدمين للعمل فى الشركات ، ومختلف مؤسسات العمل .

كذلك فإن صدور الوثيقة الخاصة بالعجزة The Americans with Disabilities (ADA) عام ١٩٩١ أدى إلى حماية العجزة من التمييز ضدهم ، وإزاء ذلك هب الأخصائيون فى علم النفس الصناعى والتنظيمى لإيجاد وتوفير الوسائل التى من شأنها وقف التمييز غير العادل .

٥ - أعمال فردريك تيلور

من العوامل الكبرى المؤثرة فى علم النفس الصناعى التنظيمى العمل الذى قام به فردريك ونسلو تيلور Fredrick winslow Taylor ، وهو مهندس قام بدراسة انتاجية العامل وذلك من خلال ما أسماه "بالإدارة العلمية " Scientific Management . وتتضمن الإدارة العلمية من وجهة نظره عدداً من المبادئ حددها تيلور بالآتى :

١- التحليل الدقيق لكل عمل للتوصل للطريقة القصوى للأداء فيه .

٢- اختيار العمال وفقًا لخصائص ومتطلبات العمل المرتبطة بالأداء ، وعلى الإدارة تحديد هذه الخصائص الهامة .

٣ - تدريب العمال التدريب المناسب ليتمكنوا من الأداء الجيد الكفء لعملهم .

٤ - مكافأة العمال وفقًا لانتاجيتهم لتشجيع ذوى الأداء الأعلى (Spector, 1996:6) .

ورغمًا من التعديلات التى أجريت على هذه المبادىء فإن تطبيقاتها مازالت قائمة حتى اليوم .

٦ - علم النفس الصناعى التنظيمى فى بلاد العالم :

أيها السيدات والسادة ، ورغماً ممايكون قد بدا لنا من ذلك الجزء السابق الذى عرضناه ، والخاص بالنشأة ، من أن كل شىء فى علم النفس الصناعى التنظيمى أمريكى لكنها ليست كل الصورة ، فقد جاء الكثير من نتائج واكتشافات بحوث علم النفس الصناعى التنظيمى عبر كثير من بلاد العالم غير الولايات المتحدة الأمريكية ، وبلاشك فإن هذه الاكتشافات تختلف من بلد إلى آخر وفقًا لتوجهات كل دولة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً مما ترتب على ذلك أن النظم والأساليب المستخدمة فى الاختيار قد ارتبطت بحجم القوى العاملة وغيرها. هذا من جانب ، ومن جانب آخر نجد أنه فى بلد كالولايات المتحدة كان له تقليده الخاص فى إعطاء اهتمام للجانب

الصناعى (أ) عن الجانب التنظيمى (O) ، فى حين نجد أن التركيز فى بلد ككندا وأوربا يكون على الجانب التنظيمى عن الجانب الصناعى . ويرجع ذلك جزئيًا للحركات القومية لاتحادات العمال فى هذه البلاد ، والتى تسعى لكسب المزيد من الحقوق للعمال، وذلك عما هو عليه الأمر فى الولايات المتحدة . ولذلك فإن كثيراً من البحوث التى تختص باتجاهات العمال وصحتهم وأمنهم وسعادتهم تتم فى كندا وأوربا .

ولذلك فإننا ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين فإنه من الواضح أن علم النفس الصناعى التنظيمى سيواصل تطوره وازدهاره فى العالم ليشمل إلى جانب الولايات المتحدة أستراليا ونيوزيلنده وكندا وإنجلترا ، ومما يؤكد ذلك أن معظم المجالات المرتبطة بعلم النفس الصناعى التنظيمى تنشر فى إنجلترا .

وكمثال للبحوث التى تجرى على مستوى العالم ، تلك الخاصة بالمشقة فى العمل Job Strees، إذ يشارك فيها باحثون من معظم الدول (Spector,1996) . وتظهر المشقة فى العمل فى ارتفاع معدلات الغياب وانخفاض الإنتاجية ، وزيادة ادعاء المرض . وتنتج هذه المشقة غالبًا من التغيرات التى تحدث فى نظام العمل ، وفى الدور الذى يقوم به الأفراد ، وما يحدث من إعادة لتصميم طرق العمل وأجهزته وأدواته (Cartwright susom & Cooper corry (.,1997) ، وفى إطار ذلك نجد أيضًا أن أغلب التطورات الكبرى فى علم النفس الصناعى التنظيمى تجىء من خارج الولايات المتحدة ، وفى هذا الصدد نجد أن هناك برنامجًا هامًا لبحوث المشقة فى العمل فى جامعة ستوكهولم بالسويد ، كذلك فإن المجلة التى تحمل عنوان" المشقة فى العمل Work & Stress" ، تصدر فى إنجلترا وتنتشر الكثير من البحوث عن هذا العنوان . (Spector, 1996) .

٣ - إعداد الأخصائى النفسى الصناعى التنظيمى :

تناولنا حتى الآن من القضايا الأساسية ما يتعلق بمفهوم علم النفس الصناعى والتنظيمى ، ونشأة هذا العلم ، ونتناول فيما يلى إعداد الأخصائى النفسى الصناعى والتنظيمى ، وتلك النقاط الثلاث : المفهوم ، والنشأة ، وإعداد الأخصائى، تتكامل مع بعضها البعض بصورة متناسقة فالمفهوم يضع فى الاعتبار بصورة حيوية

بارزة البحث والتطبيق لموضوعات هذا العلم ، والتى فازت باهتمام ما لدى الأباء الأوائل وما زالت تلقى العناية لليوم من قبل المتخصصين ، ولكى ترتقى تلك العناية والاهتمام لمستوى يحقق زيادة فى الإنتاج وتوافقًا نفسيًا واجتماعيًا لدى العاملين فى الصناعة لابد من إعطاء برامج إعداد وتأهيل الأخصائى النفسى الصناعى العناية التى تليق بها .

وفى إطار هذا التأهيل والإعداد نجد أن الحصول على درجة الدكتوراة فى الفلسفة فى علم النفس الصناعى التنظيمى يمثل المؤهل المتطلب فى هذا الفرع ، وذلك وفقًا لبرنامج هذه الدرجة فى كثير من بلدان العالم . ورغمًا من ذلك فإن هناك الكثير من الأفراد الذين يعملون فى هذه المهنة لكنهم ليسوا متخصصين فى علم النفس الصناعى فى الأساس، لكن قد يكونوا متخصصين فى أحد فروع علم النفس الأخرى، أو متخصصين فى إدارة الأعمال ، ويمكن ممارسة مهنة الأخصائى النفسى الصناعى التنظيمى بالحصول على درجة الماجستير فقط فى علم النفس الصناعى التنظيمى ، وتحدد مكانتهم المهنية والوظيفية من خلال تلك الدرجة ، كما يكون من بينهم الكثيرين الذين يكونون ناجحين نجاحًا كبيرًا فى العمل . ويبين الجدول (٢) عدد برامج الماجستير والدكتوراة فى اثنتين وثلاثين ولاية أمريكية ، وهى الولايات التى بها هذه البرامج فقط .

جدول (٢)
برامج الماجستير والدكتوراة فى علم النفس الصناعى والتنظيمى فى اثنتين وثلاثين ولاية بالولايات المتحدة

مسلسل	البرنامـــــج	عدد البرامج
١	برنامج للماجستير والدكتوراه	٣٢
٢	برنامج للماجستير فقط	٣٤
٣	برنامج للدكتوراه فقط	٥٤

ويوضح الجدول (١) أن اثنتين وثلاثين ولاية من مجموع الولايات المتحدة الأمريكية هى فقط التى بها برامج للماجستير والدكتوراة فى علم النفس الصناعى التنظيمى ، وباقى الولايات ليست بها هذه البرامج ، ومن أمثلة الولايات التى بها برامج للدكتوراة فقط : ولاية ألاباما ، وشنطن ، ونبراسكا ، ومن الولايات التى بها برامج للماجستير فقط : ولاية كنتاكى ، وولاية ماساشوستس ، وأما الولايات التى بها برامج للماجستير والدكتوراة : ولاية مينسوتا ، ونيويورك ، وولاية نيوجيرسى (Spector, 1996).

ويبين الجدول (٣) باقى بلاد العالم التى تمنح درجات دراسات عليا فى علم النفس الصناعى والتنظيمى .

جدول (٣)

الجامعات التى بها دراسات عليا فى الماجستير والدكتوراة فى علم النفس الصناعى والتنظيمى فى العالم

مسلسل	البلد	عدد الجامعات التى بها دراسات عليا	٪
١	أستراليا	٢	٪٧
٢	كندا	٦	٪٢١
٣	الصين	١	٪٣
٤	إنجلترا	٤	٪١٤
٥	ألمانيا	٦	٪٢١
٦	إسرائيل	٢	٪٧
٧	نيوزيلندا	٣	٪١٠
٨	جنوب إفريقيا	٤	٪١٤
٩	سويسرا	١	٪٣
	المجموع	٢٩	٪١٠٠

وواضح من الجدولين (٢) ، (٣) أن للولايات المتحدة الأمريكية الريادة فى عدد برامج الماجستير والدكتوراة التى بها ، ويبلغ عددها ١٢٠ برنامجًا . ولقد بدأت هذه البرامج فى الولايات المتحدة وانتشرت بعد ذلك فى بلاد العالم .

ويتضمن إعداد الأخصائى النفسى الصناعى التنظيمى تدريبًا على التطبيقات العملية وعلى إجراء البحوث فى المجال الصناعى ، وذلك ليكون مؤهلا لتطبيق الطريقة العلمية وأسس علم النفس على مشكلات العمل .

ويمكن للأخصائى النفسى فى الصناعة الحاصل على درجة جامعية فى علم النفس من إعداد رسالة الدكتوراة فى التخصص فى مدة تتراوح بين ٤ - ٥ سنوات . ويتضمن برنامج الدكتوراة مواد علم النفس العام ، وتصميم البحوث والإحصاء إضافة إلى موضوعات علم النفس الصناعى والتنظيمى والتى أقرتها جمعية علم النفس عام ١٩٨٥ والموضحة بالجدول (٤)

جدول (٤)

موضوعات برنامج الدكتوراة فى علم النفس الصناعى والتنظيمى

* علم نفس عام
* تصميم بحوث
* احصـــــاء

+

مسلسل	المادة	مسلسل	المادة
١	نظرية دوافع العمل	٧	جماعات العمل
٢	نظرية التنظيم والإدارة	٨	قياس الأداء
٣	تطور التنظيم والإدارة	٩	محكات العمل
٤	اتجاهات العمل	١٠	الاختيار المهنى
٥	الأداء فى العمل	١١	تحليل العمل
٦	قياس الفروق الفردية	١٢	التدريب المهنى

ويعتبر سوق عمل الأخصائي النفسي الصناعي التنظيمي في الولايات المتحدة الأمريكية سوقًا رائجة ، إلا أن هذا الأمر تحدث فيه هزات أحيانًا نتيجة الظروف الاقتصادية العامة . ويبين المسح الذي تجربة جمعية علم النفس الأمريكية أن نسبة البطالة بين المتخصصين في علم النفس التنظيمي تصل إلى ١٪ .

ولقد جاء وقت من الأوقات تصدر فيه الرجال الأغلبية في عدد المتخصصين في علم النفس الصناعي التنظيمي ، وبلغت نسبة النساء الحاصلات على الدكتوراة عام ١٩٦٠ في هذا التخصص ٨ ٪ . وفي السنوات الأخيرة من القرن العشرين دخلت المرأة مجال علم النفس الصناعي التنظيمي ، وصار اليوم نصف عدد رسائل الدكتوراة التي تمنح فيه بالولايات المتحدة للمرأة .

وبالنسبة لمزاولة مهنة الأخصائي النفسي الصناعي التنظيمي تشترط ببعض الولايات المتحدة الأمريكية الحصول على رخصة ممارسة المهنة التي تعتبر متطلب أساسيًا لذلك (Spector, 1996) .

وهناك الكثير من الجمعيات العلمية المهنية التي ينتسب إليها أخصائيو علم النفس في الصناعة ، كجمعية علم النفس الصناعي التنظيمي Society of Industrial organizational Pyschology (SIOP) ، والتي تعتبر قسمًا في جمعية علم النفس الأمريكية (APA)، والتي يبلغ عدد أعضائها ٤٢٠٠ عضوًا ، وهم في نفس الوقت أعضاء في جمعية علم النفس الأمريكية ، كما يوجد في كندا جمعية تحمل ذات الاسم، وفي بريطانيا قسم لعلم النفس المهني في جمعية علم النفس البريطانية ، وفي جميع أنحاء أوربا توجد أقسام مماثلة أيضًا، ومنها الجمعية الأوربية للعمل The European Association of work and organizational poychology (EAWOP) .

ولكل جمعية من هذه الجمعيات مجلة تنشر فيها البحوث التي تهتم بالعمل ومشكلاته ، كالغياب ، وانخفاض الأداء ، والحوادث ، كمجلة "علم النفس التطبيقي"

والتى تنشر بواسطة جمعية علم النفس الأمريكية ، ومجلة "السلوك التنظيمى" والتى ينشرها جون وايلى John Wiley الناشر الأمريكى المعروف .

ويبين الجدول رقم (٥) المجلات التى تنشر بحوثًا فى علم النفس الصناعى والتنظيمى .

جدول (٥)

مجلات نشر البحوث فى مجال علم النفس الصناعى

رقم	اسم المجلة
١	مجلة أكاديمية الإدارة
٢	مجلة الإدارة
٣	مجلة الإدارة العلمية
٤	مجلة علم النفس الصناعى التنظيمى الدولية
٥	مجلة علم النفس التطبيقى
٦	مجلة الإدارة
٧	مجلة علم النفس التنظيمى والمهنى
٨	مجلة السلوك التنظيمى
٩	مجلة السلوك المهنى
١٠	مجلة السلوك التنظيمى واتخاذ القرار
١١	مجلة علم نفس الأفراد

ويتضح من الجدول أن هناك سبع مجلات تهتم مباشرة بنشر بحوث علم النفس الصناعى كما يتضح من اسمها ، وهى أرقام ٤، ٥، ٧، ٨ ، ٩، ١٠، ١١، وأربع مجلات تهتم هى أيضاً بنشر بحوث فى المجال الإدارى وهى المجلات الباقية .

ويراعى الأخصائى النفسى الصناعى التنظيمى فى عمله الميثاق الأخلاقى Ethi-cal Code للمشتغلين في مهنته ، والذى تطور ونما عبر السنين بواسطة جمعية علم النفس الأمريكية ، والذى يتضمن المبادئ والأسس الأخلاقية الخاصة بالسلوك المهنى، والذى يتبعه هؤلاء الأخصائيون فى عملهم .

ويقوم الأساس الفلسفي للميثاق على أن يبذل الأخصائيون جهدهم فى عدم إلحاق الضرر بالآخرين من خلال عملهم المهنى . ويعنى هذا أن يتجنب الأخصائى النفسى القيام بأى فعل غير قانونى أو غير أخلاقى ، والذى يؤدى إلى إلحاق الضرر الجسمى أو النفسى بأى فرد من الأفراد . ومن ناحية أخرى فإنه فى إطار الميثاق تقع على عاتق الأخصائى النفسى الصناعى مسئولية اجتماعية تتمثل فى استخدام مهاراته المهنية وقدراته فى تقديم المساعدة للناس . ويقترن بذلك أنه فى أثناء العمل المهنى لابد أن يغلب الجانب الإنسانى على كل الجوانب الأخرى، إذ أن ذلك سيساعد على تقدم العمل فى المؤسسة ، وعلى سعادة ورضا العاملين فيها .

وهناك ستة مبادئ للميثاق الأخلاقى لجمعية علم النفس الأمريكية (١٩٢٢) وهى:

١- الكفاءة ، أى قيام الأخصائى بالعمل الذى يستطيع القيام به فقط .

٢ - الاستقامة ، أى أن يكون الأخصائى عادلا وأميناً مع كل من يتعامل معهم.

٣ - المسئولية العلمية والمهنية ، أى يحافظ الأخصائى على المعايير الخاصة بالسلوك المهنى .

٤ - احترام خصوصيات الناس ، يحترم الاخصائى حقوق الناس وأسرارهم ، وما هو مفترض أنه مؤتمن عليه .

٥ – الاهتمام برفاهية الآخرين ، يساعد الآخرين على بلوغ أقصى درجات السعادة .

٦ – المسئولية الاجتماعية ، بأن يستخدم الأخصائى مهاراته فيما يعود بالخير والفائدة على المجتمع (Spector, 1996).

ثانياً – علم النفس الصناعى والتنظيمى فى مصر

أيها السيدات والسادة : بعد تناولنا لعدد من الموضوعات الخاصة بالمفهوم والنشأة والإعداد، أى إعداد وتأهيل الإخصائى النفسى الصناعى التنظيمى ، يجدر بنا أن نقدم الجزء الثانى من موضوعنا عن علم النفس الصناعى التنظيمى فى مصر .

مقدمة : تمثل موارد الدخل الصناعى لمصر ٢٠٪ من الدخل القومى(*) ، ومن هذه النسبة التى تمثل مليارات الجنيهات تنبع الحاجة الملحة والضرورية على المستوى القومى لتطبيقات علم النفسى فى الصناعة ، وذلك من خلال آلية علم النفس الصناعى التنظيمى، بدءاً من تعليمه فى الجامعات حتى تطبيقه على يد الإخصائى النفسى الصناعى التنظيمى المؤهل على مئات الآلاف من العمال الذين يعملون فى الشركات التى تقوم بمختلف الأنشطة الهندسية والتعدينية وغيرها من الأنشطة الاستهلاكية والخدمية .

وفى إطار ذلك نجد أنه منذ أن أعد السيد خيرى عام ١٩٧١ تقرير علم النفس والإنتاج فى المؤتمر الأول لعلم النفس بمصر تحت رعاية المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، بل نقول ومنذ أن صار علم النفس الصناعى يدرس بالجامعات المصرية ضمن مناهج أقسام علم النفس بكليات الآداب ، وظهور أول مؤلف فى

(*) حديث للدكتور مصطفى الرفاعى وزير الصناعة ، أخبار اليوم ، العدد (٢٩٤٩) ، السنة (٥٧) ، السبت ١٢ مايو عام ٢٠٠١

الستينيات لعثمان نجاتي عن علم النفس الصناعي ، بل يمكن أن يكون قبل ذلك بكثير منذ قيام ديوان الموظفين عام ١٩٥٢ باستخدام الاختبارات النفسية في اختيار المتقدمين للوظائف الشاغرة بالمصالح الحكومية وكافة أجهزة الدولة . فإنه منذ ذلك الوقت وحتى الآن نجد أن هناك بعض البحوث التي تجري من هنا ومن هناك على المستوى القومي في مجال علم النفس الصناعي التنظيمي مواجهة بذلك بعض الشيء التغيرات التي حدثت في مصر منذ قيام ٢٣ يوليو وحركة التصنيع التي واكبتها ، وما نتج عن ذلك من إتاحة فرص عمل لأعداد كبيرة من العمال في صناعات متنوعة والذين كانوا في نفس الوقت بالنسبة لبعض الباحثين عينات خصبة وفيرة لإجراء الكثير من البحوث عن العوامل النفسية المرتبطة بكثير من الموضوعات، كالكفاية الإنتاجية ، والغياب ، والاستهداف للوقوع في الحوادث ، والاضطرابات النفسية ، وكيفية الوقاية منها باتباع عدد من الإجراءات كالاختيار والإرشاد ، خاصة وأن كثيراً من هؤلاء العمال قد أتوا من المجتمع الزراعي دون إعداد وتدريب متقن، مما جعل توافقهم في البيئة الصناعية الجديدة أمراً يتطلب تدخل علم النفس. أيها السيدات والسادة : نرى بعد هذ المقدمة أن يكون تناولنا لهذا الجزء معنياً بعدد من النقاط :

الأولى – تحليل النشاط العلمي لعلم النفس الصناعي التنظيمي .

الثانية – تحليل للاتجاهات والاهتمامات السائدة في بحوث :

١ – التوافق المهني .

٢ – السلوك الإداري .

٣ – التدريب المهني .

٤ – الاختيار : والاختبارات النفسية .

الثالثة – حول إعداد إخصائي نفسي صناعي في مصر .

جدول (٦)

موضوعات علم النفس الصناعى التنظيمى فى مصر

رقم	الموضوعات
الأول	تحليل للنشاط العلمى لعلم النفس الصناعى التنظيمى
الثانى	تحليل للاتجاهات والاهتمامات السائدة فى :
	١ - بحوث التوافق المهنى
	٢ - بحوث الإدارة
	٣ - بحوث التدريب المهنى
	٤ - اختبارات القدرات
الثالث	هل هناك ، إعداد للإخصائى النفسى الصناعى فى مصر ؟

أولاً - تحليل للنشاط العلمى لعلم النفس الصناعى

يمكن أن يطلق على حركة النشاط العلمى لعلم النفس الصناعى فى مصر الاهتمام الشديد بإجراء البحوث فى فترة الستينيات ، حيث أسست الكثير من الشركات الصناعة ، إلا أن حركة النشاط العلمى هذه تتصف بالاندثار فى الفترة من منتصف السبعينيات وللآن ، حيث ظهرت على الساحة موضوعات أخرى فى علم النفس الاجتماعى والشخصية والاتجاهات السياسية ، والتى يمكن أن تكون رد فعل انبعث عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ والانفتاح الاقتصادى .

وبالتحليل والعرض لنشاط علم النفس الصناعى فإنه يمكن حصرها ابتداءً من عام ١٩٦٤ ، عندما ظهر أول مؤلف فى علم النفس الصناعى (نجاتى ١٩٦٤)، إلى

ظهور أربعة عشر مؤلفًا فى ذلك المجال حتى الآن. وفى هذا الإطار يمكن أن يؤرخ لبداية هذه الفترة بمؤلف عثمان نجاتى "علم النفس الصناعى"، والذى يعتبر أول مؤلف فى علم النفس الصناعى فى مصر (١٩٦٤) ، وانتهاءً ببحث فرج طه عن سيكولوجية الإصابات وحوادث العمل عام ١٩٦٦، والذى ظهر فى كتاب عام ١٩٧٩ . ولقد تخلل تلك الفترة (٦٤ – ١٩٧٩) ظهور مؤلفات فى علم النفس الصناعى لأحمد عزت راجح (١٩٦٥) ، والسيد محمد خيرى (١٩٧٢) ، ومؤلفات أخرى فى موضوعات مرتبطة بعلم النفس الصناعى كالقياس السيكولوجى فى الصناعة (حلمى المليجى ١٩٦٦) وعلم النفس والإنتاج (عبد الرحمن العيسوى ١٩٧٣).

أما الفترة من عام ١٩٨٠ حتى عام ١٩٨٥ فقد نشر فيها مؤلف فى علم النفس الصناعى كل عام دون انقطاع، بداية بمؤلف فرج طه عن الشخصية المعوقة للإنتاج (١٩٨٠) إلى مؤلف محمود أبو النيل عن علم النفس الصناعى بحوث عربية وعالمية (١٩٨٥) ، وعلم النفس والكفاية الإنتاجية (سيد عبد الحميد مرسى ١٩٨١) ، وعلم النفس وقضايا العصر ، وعلم النفس الصناعى والتنظيمى (فرج طه ٨٢ ، ١٩٨٣) ، والأمراض السيكوسوماتية (محمود أبو النيل ، ١٩٨٥).

وبالنسبة لمحتوى هذه المؤلفات يمكن أن نشير ، فى ضوء أنها تمثل النواة الأولى فى تأهيل الأخصائى النفسى الصناعى ، إلى تضمن بعضها المحتوى الكامل لكل موضوعات هذا العلم (راجح ١٩٦٥، السيد خرى ، ١٩٧٢ ، فرج طه ١٩٨٣) كما نجده فى المؤلفات العالمية ، فتشمل موضوعات : الاختيار المهنى ، والتوجيه والإرشاد ، وتحليل العمل، وتحليل الفرد ، واستخدام الاختبارات النفسية بأنواعها فى المجال المهنى ، وكذلك اشتمالها لموضوعات الاستهداف للحوادث والتوافق المهنى والتدريب المهنى ، ودراسات الزمن والحركة ، وظروف العمل والروح المعنوية . أما البعض الآخر من المؤلفات فقد اقتصر على موضوع معين ، كالكفاية الإنتاجية (عبد الرحمن العيسوى ١٩٧٣ ، سيد عبد الحميد مرسى ١٩٨١) ، والتى تتناول موضوعات فى علم النفس الصناعى تجعل من الكفاية الإنتاجية وزيادة الإنتاج

كمًا وكيفًا محوراً لها ، ووجود مؤلفات أخرى تهتم بتحليل الفرد وما يرتبط به من مقاييس نفسية (حلمى المليجى ١٩٦٩) .

ونخلص من ذلك أنه ليس هناك اتفاقًا على موضوعات ثابتة فى هذه المؤلفات تشكل تكوينًا فعالا فى هذه المرحلة فى إعداد الأخصائى النفسى الصناعى التنظيمى ، ويسمح فى نفس الوقت لكل مؤلف بإبراز اهتماماته وتوجهاته ، ومن هنا ننادى بلجان تتفق على هذه الثوابت ، ليس فى علم النفس الصناعى فقط بل وكل فروع علم النفس الأخرى .

ثانياً – تحليل للاتجاهات والاهتمامات السائدة فى بحوث علم النفس الصناعى

١- بحوث التوافق المهنى :

وفى إطار ما أجرى من مسح لبحوث التوافق نجد أن نسبة المنشور منها فى الفترة من ١٩٦٤ للآن له مدلوله فى بعض السنوات ، فزيادة تلك النسبة فى عام ١٩٧١ لتصل إلى ٣٢٪ وذلك لانعقاد مؤتمر علم النفس.الأول فى هذا العام ، ولم نتمكن من أن نستدل شيئًا من وراء انخفاض أو ارتفاع النسبة فى السنوات الأخرى .

وفى تحليل تلك الأبحاث نجد أنها قد تجاوزت المجال الصناعى لتشمل التوافق فى العمل ، سواء فى المجال الصناعى أو المجال التربوى ، ذلك الأخير الذى كان ميدانًا لأول بحث (محمد جميل يوسف ١٩٦٤) أجرى فى مجال التوافق المهنى . وقد يبدو أن أخذ زمام المبادرة فى إجراء بحوث التوافق فى الميدان التربوى قبل الصناعى يرجع فى نظرنا لسهولة إجراء البحوث فى المؤسسات التربوية عن إجراءها على عاملى العامل المرتبط بالآلة والإنتاج .

كما اتضح من التحليل أن هذه البحوث لا تسير وفق خطة معينة ، حيث يكون تناول الموضوع من جميع زواياه ، فالتخطيط للبحوث يضع فى اعتباره مشكلات معينة

لها حجمها ووزنها فى الميدان ، فيسعى البحث للكشف عن العوامل المرتبطة بها من كل الأوجه . ولعل ما يؤيد ذلك ما تشير إليه موضوعات هذه البحوث من حيث تناولها لموضوعات متفرقة . فنجد بعض هذه البحوث تهتم بدراسة الروح المعنوية والرضا عن العمل لدى موظفى الحكومة والقطاع العام (فتوح أبو العزم ١٩٧١) ، وأخرى تتناول التعب فى العمل العقلى (سليمان الخضرى الشيخ ١٩٧٦) ، والشخصية المنتجة (فرج طه ١٩٧١) ، وقضية التنمية وجوانب التوافق فى العمل (فرج طه ١٩٧٦)، والاضطرابات السيكوسوماتية (محمود أبو النيل ٧٤، ١٩ ، ١٩٨٢) ، والإهمال ، والعامل المشكل ، والغياب ، والحوافز (عزيز حنا ١٩٦٨ ، فرج طه ١٩٦١ ، محمد إسماعيل يوسف ١٩٧١ ، محمود أبو النيل ١٩٧٩).

وعندما بدأت البنوك والشركات الاستثمارية تجد طريقها إلى مصر بعد الانفتاح الاقتصادى أجريت عدة بحوث لدراسة ورصد هذا التحول ، فأجرى عادل محمد هريدى دراسة مقارنة عن الصحة النفسية لدى العاملين بالقطاع العام والاستثمارى (١٩٨٨) ، وكان مجال دراسته شركة مصر إيران للغزل والنسيج، والشركة العامة للجوت ، كما أجرت هناء محمد فهيم دراسة فى التوافق فى العمل بين العاملين فى بنوك وطنية والعاملين فى بنوك أجنبية (١٩٨٨) ، وعندما بدأت الخصخصة وبيع القطاع العام قارن أحمد سعد جلال (١٩٨٥) بين العاملين فى شركتين من شركات الألنيوم أحدهما قطاع عام والأخرى قطاع خاص ، بهدف الكشف عن الفروق بينهما فى بعض الجوانب النفسية ، وخاصة النواحى العصابية والسيكوسوماتية .

٢- السلوك الإدارى :

اهتم المختصون بإجراء بحوث فى هذا المجال لأهميتها فى مساعدة المديرين فى اتخاذ القرار إزاء المشكلات التى تواجههم فى العمل ، وقد كان للمؤتمر الأول لعلم النفس الفضل فى نشر عدد من البحوث التى تتعلق بالسلوك الإدارى فى الصناعة .

وقد عالج كل بحث من هذه البحوث موضوعًا مختلفًا يمكن حصر اثنين منها فقط يقعان فى مجال واحد وهو: السلوك الإدارى للمدير (محمد إسماعيل يوسف ١٩٧١)، حيث عرض الباحث لمراحل الفكر الإدارى من فترة ما قبل الإدارة العلمية حتى النظرية الخاصة بتفسير السلوك الإدارى تفسيراً متكاملا . كما أن بعض هذه البحوث قد اختص باشتراك العاملين فى مجلس الإدارة واللجان النقابية (وفاء حسين ، فاروق رضوان ١٩٧١) ، وتناول بحث على جلبى (١٩٧١) ، وسيد مرسى ، مشاكل العلاقات الإنسانية فى مجال الإدارة والكفاية الإنتاجية .

وفى عام ١٩٧٢ جاء الاستقصاء الشامل للجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء عن المدير المصرى ، ونحا الاستقصاء اتجاهًا آخر فكشف عن أن نسبة ٧٪ من العينة يعتقدون أن هناك وظائف أخرى فى جهات عملهم أكثر اتفاقًا مع خبراتهم . ومن البحوث التى اهتمت بدراسة المدير الكفء (عبد الرحمن العيسوى) ، واعتمدت فى الكشف عن ذلك على الصفات التى يراها مجموعة من العاملين ضرورية فى شخصية المدير الكفء .

وفى إطار العلاقة بين علم النفس والإدارة فى المجال الصناعى أجرى كمال عبد المحسن البنا (١٩٨٧) دراسة عن العلاقة بين الأنماط الإدارية والاضطرابات السيكوسوماتية باستخدام مقياس موتون وبليك عن الشبكة الإدارية grid management، ووجد علاقة بين النمط الإدارى والاضطراب السيكوسوماتى المستهدف للإصابة به نتيجة لما يقوم به فى هذا النمط من أعمال بها مشقة .

ويبدو فى هذا الإطار أن اتفاقية "الجات" والتى تعنى " أن تكون أو لا تكون " كان لها صدى لدى بعض الباحثين، أغلبهم من إدارة الأعمال، إذ تنبهوا إلى أن من ينافس ويملك سوق التجارة العالمية لابد أن تتوفر لديه قدرات ابتكارية أعلى من غيره ، فتوجهت بحوثهم لدراسة قدرات التفكير الابتكارى وعلاقتها ببعض العوامل الانفعالية لدى رجال الإدارة العليا فى قطاع البترول (هدى صقر ، ١٩٩٣) ، ودراسة علاقة الإبداع بنمط السلوك الإدارى والشخصية (محسن لطفى ، ٢٠٠١).

٣ - بحوث التدريب المهنى

وعلى الرغم من أهمية التدريب المهنى فى المجال الصناعى، والذى يكسب الأفراد العديد من المهارات، إلا أن حجم البحوث الخاصة به متواضع إلى حد كبير ، وفى حدود المسح يبلغ عددها خمسة ، ويعتبر هذا العدد اسهاما قليلا من قبل علم النفس فى هذا المجال الضرورى لزيادة الإنتاج كما ونوعا ، وذلك فى ضوء وجود أعداد كبيرة من مراكز التدريب المهنى التى عمت محافظات مصر كلها بوجود شبكة من هذه المراكز فى معظم الشركات والمصانع فى تخصصات البناء والنجارة والكهرباء والنسيج والمعادن ، إذ من المفروض على المتخصصين فى مجال علم لنفس فى مقابل ذلك اثراء هذا المجال بتوجيه جزء من أبحاثهم لتقييم تلك البرامج النظرية والعملية فى مراكز التدريب المهنى .

وقد اهتمت مجموعة البحوث الخمسة بتقييم أثر التدريب (أحمد فؤاد نجيب ، محمود أبو النيل ، سيد عبد العال ، ١٩٧١) فى مجال الإشراف باستخدام الاختبارات المختلفة قبل وبعد البرنامج ، كما اهتم البعض الآخر (محمود أبو النيل ، ١٩٧٥) بمعرفة أثر التدريب باستخدام الاختبارات النفسية أيضًا قبل وبعد البرنامج على تشبعات العوامل الناتجة من التحليل العاملى . ولقد عنيت بحوث أخرى (إمام طه) ، عبد الرحمن المغربى ، ١٩٦٨ ، أدوار خليل ١٩٦٥ ، بالدراسة المقارنة بين العامل المدرب بأسلوب علمى وبين العامل المدرب بالأسلوب التقليدى ، وأثر التدريب فى الحالتين على كفاء ته فى العمل ، كذلك اهتم جانب آخر من هذه البحوث (زيدان عبد الباقى ١٩٧١) بالمقارنة بين كل من التدريب المهنى والتعليم الصناعى وعلاقته بكفاءة التحصيل .

٤ - بحوث الاختيار والاختبارات النفسية

بالطبع فإنه لا يمكن الفصل بين البحوث التى أجريت فى المجالات السابقة وبين بحوث الاختبارات ، لقيام البحوث أساسًا على استخدام تلك الاختبارات فى دراسة

التوافق والرضا والروح المعنوية وتقييم برامج التدريب . ونتناول هذا الجزء مستقلا عن البحوث الأخرى لأن الجهود فى مجال بحوث الاختيار والاختبارات كثيرة .

وتأتى البحوث التى أجرتها مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهنى بوزارة الصناعة على تلاميذ مراكز التدريب المهنى بهدف تقنين بطاريات القدرات والاستصدارات (السيد محمد خيرى ١٩٥٦) على رأس تلك الجهود ، حيث تم عمل بطاريات من الاختبارات لكل تخصص من التخصصات ، كالمعادن والمبانى والنجارة والنسيج ، والتى يتم بواسطتها اختيار المتقدمين من حملة الشهادة الإعدادية لمراكز التدريب المهنى . كما تأتى جهود المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية المتمثلة فى تقنين بطارية الاستعدادات العامة (محمود عبد القادر ، ١٩٧٤) ، وعمل معايير لها على عينات مصرية ، من الاسهامات الواضحة فى هذا المجال أيضًا . ولم تقف جهود المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية عند هذا الحد، بل وفى إطار تقنين الاختبارات التى تستخدم فى اختيار سائقى النقل العام (١٩٧٥) تم عمل المعايير التائية للاختبارات التى ميزت بين السائقين المتوافقين وغير المتوافقين ، والتى تستخدم كحد فاصل فى اختيار سائقى أتوبيسات هيئة النقل العام بمركز تدريب العباسية التابع لوزارة النقل .

وقد قامت وزارة القوى العاملة أيضًا ، وبحكم مسئوليتها عن التوجيه المهنى للصبية ، بإعداد بطارية قدرات الصبية (فرج طه ، ١٩٨٦) لاستخدامها فى مكاتب التوجيه المهنى بالمحافظات للتعرف على قدرات الصبية ، والذين سيتم تدريبهم على الحرف المختلفة فى مراكز تدريب القوى العاملة .

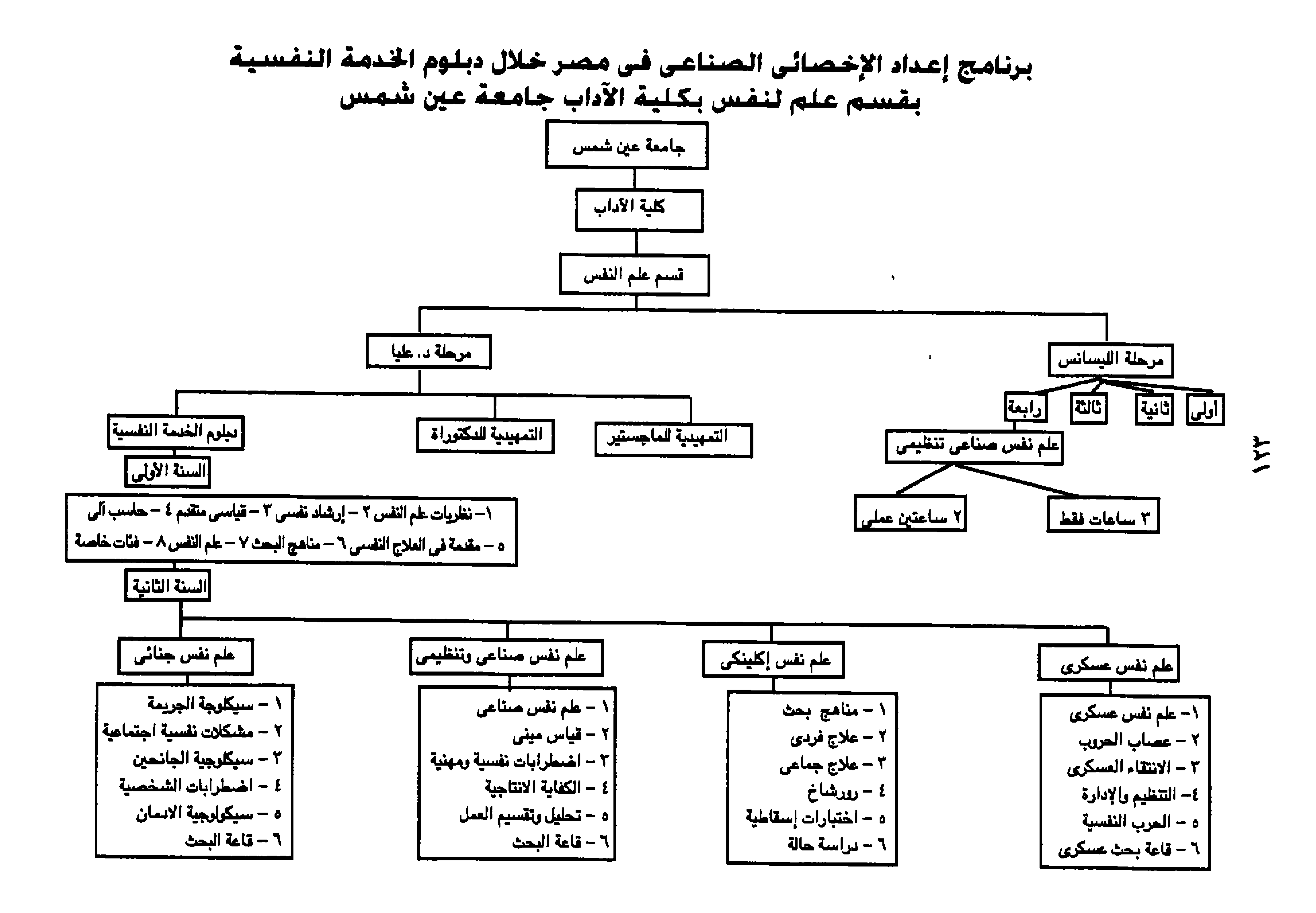
ولقد أخذت حركة بحوث الاختبارات منحى آخر وذلك من خلال عدد من الرسائل التى أجريت على عينات فى مؤسسات التعليم الصناعى ، أو مراكز التدريب المهنى، أو أحد الشركات الصناعية ، ومن الرسائل التى تم فيها تقنين بطارية للقدرات الميكانيكية (محمود عبد القادر ١٩٦٦) ما قام به محمود عبد القادر على تلاميذ مراكز التدريب المهنى ، وما قام به محمود أبو النيل (١٩٦٩) من تقنين بطارية

للاختبارات النفسية الحركية على عمال الدرفلة بشركة الحديد والصلب، وتلاميذ التدريب فى وزارة الصناعة أيضًا ، وكذلك التى قامت به نادية عبد السلام (١٩٧١) من تقنين الاختبارات المهارة اليدوية على تلاميذ المدارس الثانوية الصناعية، وقد اشتقت محكات الصدق فى هذه الدراسات من واقع الأداء الفعلى للعامل، أو التحصيل للتلميذ ،أو التقدم فى التدريب بالنسبة للتلامذة .

ثالثًا – هل هناك إعداد للإخصائى النفسى الصناعى فى مصر؟

لقد جعلت تناول النقطة الأخيرة من علم النفس الصناعى فى مصر فى صورة سؤال هو : هل هناك إعداد للإخصائى النفسى الصناعى فى مصر ؟ والإجابة لا يوجد إعداد بالصورة التى تكلمنا عنها ، لكن يوجد بعض الشعاع الذى نتمنى أن يتحول إلى وهج فى شكل برامج ثابتة للدراسات العليا . وإذا كانت الإجابة بلا على السؤال السابق فلا يجب ألا نلوم ألا أنفسنا ، نحن المتخصصين ، عندما نعرف أنه لا يوجد فى مصر بحجمها البشرى من جانب ، وبمقدار إسهام الصناعة بنسبة ٢٠٪ فى الدخل القومى كما سبق الإشارة من جانب آخر، لا يوجد عندنا أخصائى نفسى صناعى (بمعنى المفهوم الذى طرحناه) يعمل فى أحد الشركات الصناعية، وذلك إذا استثنينا مصلحة الكفاية الإنتاجية ، والتى يقتصر دورها على التلمذة الصناعية ، وليس شركات الصناعة . وفى رأى أن عدم وجود أخصائى نفسى صناعى فى مصر يرجع لعدم الاعداد ، والذى يترتب عليه عدم فعالية دور الإخصائى النفسى، ذلك الأمر الذى يهتم به بالدرجة الأولى صاحب العمل ، إذ ليس من المعقول أن يدرس الطالب فى مرحلة الليسانس مقررًا واحدًا ، سواء كان ثلاث ساعات أو أكثر ، بصرف النظر عن محتوى هذا المقرر من حيث قربه أو بعده عما يجب تدريسه من موضوعات ، ويكون هذا المقرر كافيًا لتأهيله لذلك الدور، وان كان قد درس إلى جانبه عددا من المقررات المساعدة ، مثل : القياس النفسى ، والاختبارات النفسية بأنواعها، والإحصاء، ومناهج البحث ، والنظريات النفسية .

برنامج إعداد الإخصائى الصناعى فى مصر خلال دبلوم الخدمة النفسية بقسم علم لنفس بكلية الآداب جامعة عين شمس



وبالنسبة لما سبق أن أشرت إليه من ضرورة وجود برامج ثابتة فى الدراسات العليا لإعداد الإخصائى النفسى، ليس فى الصناعة وحدها بل فى كل الميادين التطبيقية لعلم النفس، فإننى أسجل تلك المحاولة المتواضعة التى بدأت من العام الماضى بقسم علم النفس بكلية الآداب جامعة عين شمس، وذلك بإنشاء دبلوم "الخدمة النفسية" لمدة سنتين وذلك على النحو الآتى :

أولاً – مواد السنة الأولى :

١- نظريات علم النفس

٢- إرشاد نفسى .

٣ – قياس متقدم .

٤ – حاسب آلى .

٥ – مقدمة فى العلاج النفسى .

٦ – مناهج بحث .

٧ – علم نفس معرفى .

٨ – فئات خاصة .

ثانياً :-مواد السنة الثانية :

أولاً – تخصص علم النفس العسكرى .

١ – علم نفس عسكرى .

٢ – عصاب الحروب والاضطرابات السيكوسوماتية .

٣ – الاختيار والانتقاء العسكرى .

٤ – التنظيم والإدارة فى القوات المسلحة .

٥ – الحرب النفسية .

٦ – قاعة بحث عسكرى .

ثانياً – تخصص علم النفس الإكلينيكى

١– مناهج بحث .

٢ – علاج نفسى فردى .

٣ – علاج نفسى جماعى .

٤ – اختبار رورشاخ .

٥ – اختبارات إسقاطية .

٦ – دراسة الحالة .

ثالثاً – تخصص علم النفس الصناعى والتنظيمى:

١– علم نفس صناعى وتنظيمى .

٢ – أمراض نفسية مهنية .

٣ – قياس مهنى متقدم .

٤ – الكفاية الإنتاجية والتدريب .

٥ – تحليل وتقييم العمل .

٦ – قاعة بحث .

رابعاً – تخصص علم النفس الجنائى :

١- سيكلوجية الجريمة .

٢- مشكلات نفسية اجتماعية .

٣ – سيكلوجية الجانحين .

٤ – اضطرابات الشخصية .

٥ – سيكولوجية الإدمان .

٦ – قاعة بحث .

ثالثاً – التغيرات فى السياق : الموقف الراهن ، والمستقبل :

أيها السيدات والسادة : بعد أن فرغنا من عرض تلك المحاولة المتواضعة عن علم النفس الصناعى والتنظيمى فى مصر، نتناول الآن الجزء الأخير من المحاضرة، ويتعلق بالإجابة عن السؤال الآتى : ما هى التغيرات الراهنة التى تحدث فى علم النفس الصناعى والتنظيمى ؟ وماذا أيضاً عن المستقبل ؟

أولاً – التغيرات الراهنة فى السياق :

يمكن أن نلمح التغيرات الآتية :

١- التغير فى الأداء من البساطة إلى التعقيد .

٢ – تغير لوائح العمل .

٣ – ارتفاع مستوى الخريجين وزيادة عددهم .

٤ – التحول من القطاع العام إلى القطاع الخاص .

٥ – التحول فى فكر الإخصائى النفسى الصناعى والتنظيمى .

١ – التغير فى الأداء من البساطة إلى التعقيد :

تواجه الصناعة اليوم مشكلات تختلف تماماً عن تلك التى كانت على أيام سكوت ومنستربرج ، فمعظم المصانع كان العمل فيها شاقًا وكانت إدارة الآلات تتم يدوياً . ولذلك فإننا نجد أن دراسات منستربرج الخاصة باختيار ميكانيكى سيارات قد ركزت على الإدراك البصرى والسمعى ، وزمن الرجع ، وتقدير المسافات ، وضرورة حصول السائق على درجات مناسبة على الاختبارات التى تقيس هذه النواحى ، ولكننا اليوم نجد أنفسنا أمام تقدم تكنلوجى يتضمن أعمالا كثيرة معقدة تتطلب مراقبة لشاشات تشغيل آلات الإنتاج الكترونيا ، واجراء حسابات دقيقة ، إضافة إلى أن كل ذلك يتطلب اتخاذ قرارات سريعة . ويتضح من ذلك أن الوظائف العقلية المتطلبة لأداء هذه المهام هى وظائف معرفية مختلفة، كالتذكر بصورة المتعددة ، والاستدلال والتفكير ، وفى إطار تلك الوظائف تتغير خطوات الاختيار المهنى التى يقوم بها الاخصائى النفسى لتواكب هذه التغيرات التكنولوجية والتطور المستمر الذى يحدث فيها .
(Stagner, 1982) . ولا يقتصر الأمر فى هذا على تلك التغيرات التكنولوجية ، بل يمتد لمجال وتخصص أعمال الحسابات وميزانيات الصناعة ، حيث يتم الكشف عن العمليات المعرفية التى ترتبط بتلك الوظائف الضرورية لتحديد أسعار المنتجات والخدمات وتقييم الاستثمارات من أجل أعلى أمان اقتصادى (Ashton, Robert H., Hub- bord Allison, 1995) .

٢ - تغير لوائح العمل :

وكنتيجة لذلك التغير من البساطة إلى التعقيد فى الأداء نجد أن لوائح تنظيم العمل وقوانينه قد تغيرت أيضًا، ففى عهد منستربرج لم تكن هناك مشاكل تتعلق بالتحيز والتمييز ، رغمًا من أنه قابل فى عمله مشكلة رفض أحد الموظفين تعيين سويدى فى وظيفة ميكانيكى، بينما رأى موظف إدارى آخر أن السويدى هو أحسن وأكفأ من يقوم بهذا العمل ، ولذا فإن أخصائى علم النفس الصناعى لديهم المهارات المهنية التى تمكنهم من التنبؤ بالأداء فى العمل ، دون أن يكون هناك تمييز بين فئات معينة أو بين الجنسين أو بين كبار السن وصغار السن (Stagner, 1982) . وقد اهتم المتخصصون فى علم النفس الصناعى بمناقشة موضوعات التمييز فى العمل والمشقة فى ظروف الأداء وكذلك المساواة والمشاعر السلبية (Seal, Frank E. & Knight, Part-tick A.r 1994) .

٣ - ارتفاع مستوى الخريجين وزيادة عددهم:

كما نجد أن من التغيرات التى لحقت بالسياق التعليمى، أن من زمن طويل مضى لم يكن أحد يسمع عن طالب جامعة أو خريج جامعى يقوم بأداء عمل يدوى ، أما اليوم فيتخرج الكثيرون الذين يقبلون القيام بهذه الأعمال . ويعتبر هذا التغير هامًا إلا أنه يرتبط بعدم الرضا من جانب الكثيرين منهم، والذى يتمثل فى قولهم "إن قدراتى لا تستخدم استخدامًا كاملاً ". لكنه فى إطار ما يجرى بشكل مستمر من تطوير فى الآلات، وإعادة تصميم العمل وتنظيمه، والتكنولوجيا العالية، فإن عدم الرضا لن يطول إذ ستستغرق متطلبات التجديد والانحلال والتطوير كل ما لدى هؤلاء من قدرات .

٤ - التحول إلى الاقتصاد الخدمى :

ومن التغيرات فى السياق أيضًا تحول الاقتصاد فى كثير من البلدان من الاعتماد على إنتاج البضائع إلى الاعتماد على أن يكون اقتصاد خدمات يقدم الدراسات والمشورة والمعلومات ، وتبرز الحاجة هنا إلى الكثير من الدراسات لرصد أثار ونتائج ذلك على علم النفس الصناعى . (Stagner, 1982) . ويذهب سبرى Spery إلى ضرورة الاستشارات التى تقدم لرجل الإدارة وذلك نتيجة التوسع فى النواحى التكنولوجية (Sgerrylen, 1996) .

٥ - التحول من القطاع العام للخاص:

كذلك فإن التحول من القطاع العام إلى القطاع الخاص يتطلب مقارنة لاتجاهات وسلوك العمل قبل وبعد هذا التحول ، لما لذلك من علاقة كبيرة بالكفاية الإنتاجية للعاملين ، ولما يكشف عن ذلك من آثار التحول على توافق العمال (Stagner, 1982) . ويطلق على التحول من القطاع العام إلى القطاع الخاص بالخصخصة Privtization والتى ترجع نشأتها لابن خلدون (١٣٧٧) منذ ستمائة عام، عندما تحدث عن أهمية قيام القطاع الخاص بالإنتاج ، وإلى آدم سميث عام ١٧٧٦، عندما أشار فى كتابه "ثروة الأمم" إلى الاعتماد على قوى السوق والمبادلات الفردية لتحقيق الكفاءة الاقتصادية (موزان أبو ريه ١٩٩٩ فى ڤيڤر محمد الهادى ٢٠٠١، ص ٥٥) . وقد بدأت الخصخصة فى ألمانيا عام ١٩٥٩ وبعد ذلك فى بريطانيا ثم فرنسا عام ١٩٨٦ (رابح رتيب فى : ڤيڤر محمد الهادى ٢٠٠١ ، ص ٥٨) . وفى مصر صدر القانون ٢٠٣ لسنة ١٩٩٩ والذى سمح بجواز التصرف ببيع الأسهم المملوكة للقطاع العام لتحويل الشركات المملوكة للدولة إلى القطاع الخاص (إيهاب الدسوقى ١٩٢٤ فى : ڤيڤر محمد الهادى ٢٠٠١ ، ص ٧١) . وقد وجدت ڤيڤر محمد الهادى (٢٠٠١) فروقا داله بين العاملين فى القطاع العام والعاملين فى الشركات المماثلة التى تمت خصخصتها

على متغيرات ساعات العمل ، والود والتعامل بين العاملين لصالح الخصخصة ، وعلى متغير الأجر لصالح القطاع العام، أى رضاهم عن أجورهم (ڤيڤر محمد الهادى ٢٠٠١، ص ١٥٣).

٦ - التحول فى فكر الاخصائى النفسى الصناعى التنظيمى:

تتمثل أهم جوانب التغير فى علم النفس الصناعى فى التحول الذى حدث من جانب السيكلولوجيين، فبعد أن كانوا هم الذين يعرفون كل ما يتصل بظروف وواقع بيئة العمل أصبحوا بعد أن صقلتهم الخبرة يرون ضرورة النظر إلى الظروف والتغيرات فى البيئة الصناعية كما يدركها العمال والموظفون والمديرون والاتحادات النقابية .

ثانياً - المستقبل :

أن التقدم الذى أنجزه علم النفس الصناعى والتنظيمى فى شتى المجالات الصناعية خلال القرن الماضى ، وما زال يواصل تقدمه فى هذا القرن، يمكن أن نلمح من خلاله بعض التغيرات التى ستحدث فى مستقبل هذا العلم بالنسبة للنواحى الآتية :

١- الاختيار المهنى .

٢- إتاحة فرص عمل متساوية للجميع .

٣ - الدور الإرشادى فى الصناعة .

٤ - ميكنة الاختبارات النفسية .

٥ - الفروق الفردية .

٦ - إعادة تنظيم العمل وتصميم الآلات .

٧ - تقييم الأداء .

٨ - الصحة النفسية فى الصناعة .

٩ - الدوافع .

١٠ - أنسنة المؤسسة الصناعية .

١- الاختيار المهنى :

يعتبر الاختيار المهنى ، والذى يعتمد على كل من تحليل العمل وتحليل الفرد، أحد موضوعات علم النفس الصناعى والتنظيمى الرئيسية، إذ يمثل الجانب الوقائى لانتشار صور الانحراف عن الصحة النفسية فى الصناعة . ولذلك وفى ضوء تطوير خطوات العمل يمكن أن يكون التغيير فى هذا المجال متطلبًا أساسيًا . فالأعمال التى تكون على مستوى عال من التكنولوجيا يتطلب الأداء فيها الكثير من الوظائف المعرفية، إلى جانب استخدام الاختبارات التى تقيس المهارات اليدوية، وخاصة فى الأعمال التى تحتاج إلى التآزر الدقيق، وهذا بالطبع إلى جانب أن تظل متغيرات الشخصية فى قمة أهميتها، وذات استخدام على نحو أوسع ، إضافة إلى أن القدرة على اتخاذ القرارات السريعة فى مواجهة الأحداث الطارئة ستكون متطلبا ، بالغ الأهمية لحل المشكلات المواكبة لتلك التطورات الفنية ، ولنا أن نتوقع فى إطار ذلك من انتشار لمراكز القياس النفسى على نطق واسع . وبانتشار الاختبارات النفسية والأجهزة المستخدمة لقياس المهارات الحركية ستصبح تكلفة عمليات الاختيار المهنى بالنسبة لأصحاب الأعمال أقل بكثير مما هى عليه الآن مما يساعد على استخدامهم لها .

٢ - إتاحة فرص عمل متساوية أمام الجميع:

المشكلة التى واجهها المتخصصون فى علم النفس الصناعى تمثلت فى التمييز بين الأعمار ، اعتماداً على ما تؤكده نتائج الدراسات من أن كبار السن يكونون أكثر حذرًا وأبطأ فى اتخاذ القرار ، وأبطأ فى الاستجابة فى المواقف التى يكون فيها إجراء

اختبار عليهم ، حتى فى مجال العمل المهنى أو اليدوى ، وهذا الأمر يمثل خطورة فى عصر العمليات الآلية والتى قد تعتمد فى جوانب منها استخدام الطاقة النووية أو غير ذلك.

وبالعودة إلى الماضى إلى تاريخ علم النفس الصناعى نجد أن فيتليس Viteles (١٩٣٤) قد درس هذه المشكلة وحذر من التعميم بأن كبار السن غير أكفاء ، إذ وجد أن كثيراً من العمال الكبار فى السن قد تعلموا مهام جديدة بنفس معدل سرعة أقرانهم من العمال الصغار فى السن . وذهب إلى أن ما يحدث من انخفاض فى الأداء راجع للبيئة ، وليس راجعًا للتغيرات فى الجهاز العصبى لديهم . ويؤيد علماء النفس الارتقائى اليوم ما توصل إليه فيتليس عام ١٩٣٤، فلقد ذهب كل من بلزنر Bliezner ، بيلتس Baltes ، ويليس Willis عام ١٩٨١، أن كبار السن يمكن أن تزيد درجاتهم بصورة كبيرة على اختبارات الاستدلال المجرد إذا تدربوا يومياً لمدة أسبوعين على عمليات مشابهة . وبهذا فإن ما ذهب إليه فيتليس يعزز ما لبيئة العمل من تأثير، وما تتضمنه من تلوث وأتربه وغازات من ناحية، وما للتدريب من تأثير إيجابى من ناحية أخرى، فى ضوء بحوث علم النفس الارتقائى ، مما يشير إلا أن التمييز بين كبار السن وصغار السن أمر لا قيمة له .

٣ - الدور الارشادى فى الصناعة :

أنه لما لا جدال فيه أن النجاح فى العمل والتوافق فيه سيتطلب وضع محكات ومعايير للحد الأدنى للأداء على الاختبارات النفسية بالنسبة للمقبولين الجدد ، فإذا صارت محكات الاختيار عقبة وأساساً لرفض كثير من المتقدمين فإن على الاخصائيين النفسيين دوراً ارشادياً هاماً فى هذا الصدد، ويتمثل فى محاولة امتصاص وخفض كمية غضب وكراهية الناس إزاء ذلك ، بإرشادهم إلى الأعمال المناسبة لهم فى ضوء ما يبرزه البروفيل النفسى من قدرات متميزة لديهم .

كما أنه بالنسبة لكبار السن فمن المتوقع أن يؤدى استخدام الاختيارات المعرفية معهم لنتائج لا تعبر عن أدائهم الواقعى بسبب القلق وعدم الألفة بهذه الاختبارات ، ولهذا فإن على الاخصائى النفسى الماهر القيام بدور كبير إزاء ذلك يتمثل أيضًا فى خفض القلق وعدم الشعور بالأمن لدى كبار السن ، وذلك أكثر من دورهم كقائمين بعملية الاختبار .

رابعًا - ميكنة الاختبارات النفسية :

وتلبية للحاجة المتزايدة لإجراء الاختبارات النفسية المتطلبة فى عمليات الاختيار والإرشاد ، وزيادة أعداد المتقدمين للالتحاق بالأعمال الكثيرة التى يعلن عنها، سيجعل من الضرورة بمكان ميكنة الاختبارات النفسية فى الكمبيوتر لتسهيل عمليات التطبيق والتصحيح واستخراج النتائج فى نفس الوقت ، وذلك بدلا من استخدام اختبارات الورقة والتعلم التى تستغرق وقتًا وجهدًا كبيرًا .

خامسًا - موضوع الفروق الفردية :

يؤكد علم النفس الصناعى منذ بداية نشأته على مبدأ " أنه على الرغم من أن كل الناس بشر إلا أن كل فرد لا يمكن أن يحل محل الآخر، " فالفروق الفردية فى حدة الإبصار والسمع وسرعة الاستجابة والذاكرة ذات أهمية بالغة ، ورغما من ذلك فإن هناك من يركز على الفروق فى المتوسط بين المجموعات، حيث تختفى الفروق الفردية، فالمتوسط لا يعكس التباين الحقيقى . ولقد وقع بعض الاخصائيين فى المجال الصناعى فى نفس الخطأ ، فيجىء ما يشير إلى ذلك فى تقاريرهم التى تذكر "أن صغار العمال سنًا أكثر كفاءة بصورة جوهرية من كبار العمال "، أو ما يشير إليه تقرير آخر " أن ٢٠٪ من العمال الكبار يساوى أو يزيد أداؤهم عن متوسط درجات مجموعة

صغار العمال ". وصياغة النتائج بهذه الصورة يعكس الاستخدام غير الدقيق للاحصاء. ولقد طور الاخصائيون فى علم النفس الصناعى طرقًا إحصائية دقيقة لحساب الدرجات الفاصلة فى الأداء ، وتقسيم وتصنيف المتقدمين لمستويات حسب قدراتهم، يمكن من خلالها توزيعهم فى الأماكن التى يتحقق لهم فيها أكبر قدر من التوافق . وفى هذا الإطار أعطت جمعية علم النفس الأمريكية (APA) لطلاب الدراسات العليا فى القسم رقم ١٤ (أ/٥) أولوية التدريب على النواحى الكمية .

سادساً - إعادة تنظيم العمل وتصميم الآلات :

ذهب فيتليس (١٩٣٤) إلى أن جلبرت Gilbreths قال :" بأنه يمكن إنجاز إنتاج أكثر بقيام الشخص بالعمل بكفاءة لفترة قصيرة يعقبها أخذ فترات راحة من أن يقوم به بكفاءة أقل ولا يأخذ فترة راحة " . ورغما من اختفاء ما تحمله هذه العبارة من أهمية أخذ فترة راحة بعد التعب من العمل الشاق إلا أن التقارير كشفت فى شركة جنرال موتور (GM) عن حيرة المسئولين من شكوى العمال من ما يتطلبه العمل من سرعة فى خط الإنتاج، وترتب على ذلك قيام عامل واحد بتغطية العمل فى مكانين فى حين أن زميله يقوم بالراحة ثم يتبادلا الأدوار . ولذا فإنه من الممكن أن يقوم الاخصائى بالتعاون مع مهندس الآلات ومدير الإنتاج باقتراح طرق للعمل تتضمن خط تجميع يقلل من الضيق الذى لدى العمال .

ومن الواضح فى هذا الصدد أهمية إعادة تنظيم العمل وتطوير تصميم الآلة فى الصناعة على أن يكون للعمال دور فى ذلك حتى لا يؤدى إهمال دورهم إلى وقوعهم فى دائرة الاحباط وقيامهم بالتالى لمقاومة هذا التغير .

سابعاً - تقييم الأداء :

فيما مضى قام منستربرج (١٩١٣) بتقييم نجاح أساليبه فى اختيار من خلال معدلات الحوادث ، لأن الحوادث تمثل متغيراً أعلى تكلفة من أى متغير آخر فى شركة السيارات . واليوم يعترف الكثيرون بأن تقييم أداء العامل شيء ضرورى هام وأساسى ، لكن الذى يتم اليوم لا يمثل شيئًا ذا قيمة، فمعظم المصانع تعتمد على تقديرات المشرفين ، حيث تشير الدراسات التى أجريت عليها إلى عدم كفايتها . فقد ذهب لفسون Lifson (١٩٥٣) إلى أن خبراء دراسات الزمن والحركة لم يصلوا إلى اتفاق فيما بينهم بالنسبة لتقييم أداء العمل المسجل على فيلم سينمائى . كما أشار كل من كليفلاند ، ولاندى (١٩٨١) إلى أن تقدير الأداء الذى يتم بواسطة المشرفين يكون منخفض الثبات ويفتقر إلى الصدق . ولقد نجح كليفلاند ولاندى فى تدريب المشرفين على عمليات تقدير الأداء الخاص بالعمال إلا أنه وجد بواسطة بورمان Borman (١٩٧٨) أن الزيادة فى الثبات لا يتبعها زيادة فى الصدق كما يتضح فى الإنتاج .

ومن المعالم الجديدة فى قياس الأداء الرغبة فى إلغاء الأفكار الجامدة عن الأشخاص والجماعات بأن يتم قياس الأداء دون معرفة هوية العامل، ويتمشى ذلك مع زيادة استخدام الكمبيوتر، حيث يتم تسجيل كميات الإنتاج دون تحديد لهوية العامل الذى قام بانتاجها، فيتم بذلك عزل أثر العوامل الذاتية أو التحيز .

ثامناً - الصحة النفسية والصناعة :

اهتم السكلوجيون بتأثير الصناعة فى الصحة النفسية ، ولقد لفت كورنهاوزر Kornhauser (١٩٦٥) النظر للآثار المدمرة لعمل وفكر تيلور (الآلية ، التكرارية ، التجزيئية) ، وما ارتبط به من خوف وفزع وحساسية وكثير من الأعراض العقلية، وذلك بصورة أعلى إذا ما قورنوا بالعمال الذين يقومون بنفس العمل لكن فى مناخ يتسم بالمرونة فى واجبات العمل ، والتكيف مع الزملاء فى البيئة الصناعية .

ومن الظـواهر التى جـذبت الانتـبـاه حـديثًـا فى العـمل المهـنى ظـاهرة "الاحتراق الذهنى" burnout والتى أشار إليها جونزر (١٩٨١)، فالمرضين والأطباء المسئولين عن العناية بالمرضى بمختلف الأمراض يكونون تحت مشقة انفعالية إلى أن يقرروا ترك العمل أو أن يكتسبوا فى العمل اتجاهات تتسم بالقسوة ، وعدم المبالاة بحاجات ومتطلبات المرضى والعملاء المترددين على مكان العلاج (Stagner, 1982) . ولقد وجدت نادية الشرنوبى (٢٠٠١) فى دراستها على أعضاء هيئة التدريس بجامعة الأزهر علاقة بين الضغط والاحتراق النفسى . وكشفت الدراسة عن وجود ارتباط قيمته ٦٨, ٠ بين الأعباء الأسرية (ضغوط) وبين انخفاض الإنجاز الشخصى (احتراق) ، وارتباط قيمته ٧١, ٠ بين الأعباء الآلية (ضغوط) ، وبين الإنهاك النفسى والبدنى (احتراق) (نادية الشرنوبى ، ٢٠٠١، ٢٤).

وفى إطار تحرك الكثير من المجتمعات نحو الاقتصاد الخدمى Economy Service فإن هذه الظاهرة (الاحتراق النفسى) تحتاج إلى التدخل الإرشادى من جانب الاخصائى النفسى الصناعى التنظيمى .

كما أن الأعمال الآلية السريعة التى يعتمد العمل فيها على التكرار والأداء الروتينى تحتاج لوظائف معرفية محددة، وفى هذا الصدد ذهب برودبنت Broadbent (١٩٧٨) إلى أن العمال الذين يديرون مثل هذه الآلات يعانون من خبرات كثرة النسيان ، وعدم القدرة على التوجه ، واضطراب بعض العمليات العقلية الأخرى، وذلك بمقارنتهم بالعمال الذين يعملون فى الأعمال الأخرى غير التكرارية، كأعمال صيانة الآلات .

ولقد أكدت النتيجة السابقة دراسات فرنش French ، وكوب Cobb ، وكابلان Caplan ، وهاريسون Harrison ، وبينيو Pinneau (١٩٧٥) ، والتى أوضحت أن العمال الذين يقومون بأعمال تكرارية يعانون من مشكلات صحية أكثر من العمال الذين يقومون بأعمال يتسم الأداء فيها بالمرونة وسرعة التكيف . وفى دراسة سوفيتية لهذه المشكلة (Samilova) (١٩٧١) وجد فيها أن السيدات اللاتى يعملن على آلات

يتطلب الأداء عليها سرعة عالية يعانون من متاعب قلبية وعصبية وأمراض روماتيزمية من السيدات اللاتى يعملن على آلات يتحكمن فيها بأنفسهم .

تاسعًا – الدوافع :

لم تكن الدوافع أحد المشكلات التى اهتم بها السيكلوجيون الأوائل فى علم النفس الصناعى، إذ أن تيلور قد بسط الأمر فى عبارة واحدة هى : " أن كل العمال يريدون المال"، وتعتبر دراسات الهاوثورن من الدراسات التى تدعم وجهة نظر تعدد الدوافع، وليس المال فقط، كما تبين من تجارب غرفة الأسلاك wries room experiment . وتعتبر النظريات الهيراركية (ماسلو Maslow الديرفر Alderfer) هى المناسبة والمفيدة فى المجال الصناعى لقدرتها على تقديم تفسير لسلوك العمال فى هذا الصدد، فلقد بينت دراسات الرضا عن العمل أنه عندما يتم إشباع دافع يظهر الذى يليه ، والعمال الذين تكون أجورهم منخفضة يكون المال هو المطلب الأساسى ، لكن عندما يرون أن أجورهم كافية فإن الحاجة إلى الاحترام والمشاركة فى اتخاذ القرار، وما شابه ذلك ، تبدأ فى الظهور (Stagner , 1982) .

ولقد أكدت الدراسات الحديثة عن تخطيط العمل وعن إعادة تنظيم خطواته ، وعن التطور التنظيمى ، وعن نوعية الحياة فى العمل quality of work life صحة تطبيق نظرية هيراركيه الدوافع فى الصناعة ، رغمًا مما تبعها من نظريات كان على رأسها نظرية دوافع الاستقرار والانجاز لهرزبرج Herzberg، والتى تتلخص فى حاجة العمال إلى الشعور بالاستقرار فى العمل، وأن تكون هناك عدالة فى المعاملة، وتتمثل أيضًا فى شعور العامل بأنه يؤكد ذاته من خلال ما يقدمه من إنجاز وتحسينات وابتكارات فى العمل . ورغما من التأييد الذى لاقته هذه النظرية من البعض (Stark & Schuartz)، إلا أن روبرت أدون Edwin Robert B. وجه لها نقداً من عدة زوايا، كقلة الأعمال التى درست فيها، وهم المهندسون والمحاسبون فقط، كما اقتصر جمع البيانات على تسع أماكن فقط ، كما أن هيرزبرج استشهد فى تعميم نظريته على تتبع تاريخ

العمل الإنسانى والذى لا يعتبر محكًا كافيًا للتعميم ، كذلك اعتمد هرزبرج على المقابلة شبه المحددة والتى لا يمكن بها وحدها الارتفاع بالنتائج لمستوى النظرية (Edwin R.A., 1964 . P.161) .

عاشرًا - أنسنة المؤسسة الصناعية :

لعلم النفس الصناعى جانبين تتشكل وجهة النظر لموضوعاته ومشكلاته، منهما الجانب الأول يمكن أن نطلق عليه الجانب الكمى (جانبًا كميًا) ، والجانب الثانى الجانب الإنسانى (جانبًا إنسانيًا) . ويتضمن الجانب الإنسانى ضرورة إعطاء مكانة وقيمة لوجهة نظر العمال وإدراكهم لمشاكل بيئة العمل وانفعالاتهم بها ، أما الجانب الكمى فيعنى التحليل الذى يجرى لكافة البيانات الخاصة بالإنتاج والأجور والتكلفة والحوافز فى الصناعة . وهذان الجانبان لا ينفصمان عن بعضهما البعض ، لكن من الضرورى بل ومن المرغوب فيه أيضًا أن يكون الجانب الإنسانى فى بؤرة الاهتمام ، وكذا صار موضوع "أنسنة المؤسسة الصناعية Humanizing Industrial organization مما ينادى به الكثيرون اليوم ، وذلك فى إطار وجود حد أدنى من الاتفاق على ما تكونه "الأنسنة"، والتى تتشكل بالنظر للفرد فى المجال الصناعى كوحدة كلية Total Personality من الانفعالات والإدراكات ، ولا تتشكل ببساطة من مجموعة من درجات الاختبار وبذلك يمكن أن نرد للجانب الإنسانى اعتباره فى الصناعة .

وعلى ذلك، أى وتأسيسًا على ما سبق، يجب على الأخصائى النفسى الصناعى أن يكون على وعى، مدركًا لمشاعر وانفعالات الأفراد فى المجال الصناعى وتأثيرها على الآخرين وعلى الأدء فى العمل ، وفى نفس الوقت يضع فى الاعتبار الفروق الفردية فى الذكاء والقدرات، وبذلك يراعى الشخصية كوحدة كلية . ومن ثم فإن الأمر يتطلب من الأخصائى النفسى الصناعى سعة الاطلاع والمعرفة بالنظريات الاقتصادية والمفاهيم الاجتماعية والتطور الذى يحدث فى علم النفس، وما يرتبط بذلك من استخدام للكمبيوتر،

مع التأكيد على المعرفة المستمدة من علم النفس الاجتماعى، والتى أعد فارولا **varela** (١٩٧١) تحليلا لكيفية استخدام هذه المعلومات فى حل مشكلات الصناعة ، لضرورة مناقشة العمال والاتفاق على قرار جماعى قبل تغيير أسلوب الإنتاج .

كما قدم نورد **Nord** (١٩٨٠) ما يؤكد على ضرورة أن تمتد معلومات الأخصائى النفسى الصناعى إلى ما بعد حدودنا السيكلوجية التقليدية، لتتصل بمفاهيم الاقتصاد وعلم الاجتماع ونظرية النظم .**(Stanger, 1982)**.

المراجـــــع

١ - أحمد سعد جلال : دراسة مقارنة فى الصحة النفسية بين العاملين فى القطاع العام والقطاع الخاص ، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب جامعة عين شمس، ١٩٨٨.

٢ - أحمد عزت راجح : علم النفس الصناعى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة، ١٩٦٥.

٣ - السيد محمد خيرى : علم النفس الصناعى وتطبيقاته المحلية ،مطبعة دار التأليف بالمالية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٤ - باكيناز حسيب : علاقة القيادة بالروح المعنوية والإنتاج لدى العمال الصناعيين ، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب جامعة عين شمس ، ١٩٧٧.

٥ - جهاز مركزى للتعبئة والاحصاء : الاستقصاء الشامل للجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء عن المدير المصرى ، الجهاز المركز للتعبئة العامة والإحصاء ، القاهرة ، ١٩٧٢.

٦ - حامد أحمد رمضان : أثر هيكل القيم الشخصية على اتخاذ القرار ، المدير العربى، العدد (٧٢) ، الكويت ، ١٩٨٠.

٧ - حلمى المليجى : القياس السيكلوجى فى الصناعة ، مكتبة الإسكندرية ، ١٩٧٧.

٨ - خلف طايع طايع محمد: دراسة مقارنة فى الشخصية بين مديرى الإدارة ومديرى الإنتاج وفى إدراكهم لبعضهم فى المجال الصناعى ، ماجستير غير منشورة بكلية الآداب جامعة عين شمس ، ١٩٨٧.

٩ - سامية الجندى : سمات الشخصية وعلاقتها بالسلوك الواقعى للقائد الإدارى ، مجلة كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر فرع البنات العدد (٤) ، ١٩٨٦.

١٠ - سليمان الخضرى الشيخ : التعب فى العمل العقلى فى الكتاب السنوى الثالث للجمعية المصرية للدراسات النفسية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦.

١١ - سوسن إسماعيل عبد الهادى : دراسة العلاقة بين مستوى القلق وغياب العمال فى المجتمع الصناعى ، ماجستير بكلية البنات ، جامعة عين شمس ، ١٩٧١.

١٢ - سيد عبد الحميد مرسى : الشخصية المهنية ، لجنة علم النفس والإنتاج بمؤتمر علم النفس الأول ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧١.

١٣ - سيد عبد الحميد مرسى : علم النفس والكفاية الانتاجية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧١.

١٤ - عادل محمد هريدى عبد ربه : الصحة النفسية للعاملين بالقطاع العام والقطاع الاستثمارى ، دراسة مقارنة ، دكتوراة غير منشورة بكلية الآداب جامعة عين شمس.

١٥ - عباس محمود عوض : الارتباط بين الاستهداف لحوادث العمل والمكانة السوسيومترية للعامل ، لجنة علم النفس والإنتاج بمؤتمر علم النفس الأول ، القاهرة ، ١٩٧١.

١٦ - عباس محمود عوض : دراسات فى علم النفس الصناعى والمهنى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧.

١٧ - عبد الرحمن العيسوى : المدير الكفء فى مناهج البحث فى علم النفس ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، غير منشور السنة.

١٨ - عبد القادر همام : محددات العلاقة بين النسق القيمى المواكب للتفكير الإبداعى عند المدير ومستوى القدرات الابتكارية ، مجلة البحوث الإدارية ، المجلد (٩). أكاديمية السادات ، ١٩٧٧.

١٩ - فرج عبد القادر طه : سيكلوجية الشخصية المعوقة للإنتاج ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٨٠.

٢٠ - فرج عبد القادر طه : علم لنفس الصناعى والتنظيمى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣.

٢١ - فرج عبد القادر طه : قراءات فى علم النفس الصناعى ، مطبعة سعيد رأفت ، القاهرة ، ١٩٧٣.

٢٢ - ڤيڤر محمد الهادى (٢٠٠١) : مكونات العلاقة بين الصحة النفسية والاتجاه نحو الخصخصة لدى عينة من عمال الصناعة ، رسالة ماجستير غير منشورة، بقسم علم النفس كلية الآداب جامعة عين شمس .

٢٣ - قدرى محمود حفنى : دراسة تجريبية لأثر الجمود الإدراكى فى التعرض لإصابات العمل ، دار الكتب القومية ، القاهرة ١٩٧٤.

٢٤ - كمال عبد المحسن البنا : التوافق النفسى للمديرين ، دراسة عن العلاقة بين النمط الإدارى وبين نوع الاضطرابات السيكوسامتية فى الصناعة ، رسالة دكتوراة غير منشورة بكلية الآداب جامعة عين شمس ، ١٩٨٧.

٢٥ - محسن لطفى أحمد إبراهيم : علاقة الإبداع بنمط السلوك الإدارى والشخصية لدى المديرين وبالكفاية الإنتاجية للعاملين بادارتهم فى المجال الصناعى ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، بكلية الآداب جامعة عين شمس ، ٢٠٠١.

٢٦ - محمد إسماعيل يوسف : أنماط السلوك الإدارى للمديرين بجمهورية مصر العربية ، لجنة علم النفس والإنتاج بمؤتمر علم النفس الأول ، ١٩٧١.

٢٧ – محمد إسماعيل يوسف : سلوك المدير فى نظريات الإدارة ، لجنة علم النفس والإنتاج بمؤتمر علم النفس الأول ، ١٩٧١.

٢٨ – محمد عبد الرازق هويدى : تقويم برامج تدريب المشرفين بإحدى المؤسسات الصناعية ؛ ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب جامعة عين شمس ، ١٩٧٢.

٢٩ – محمد عثمان نجاتى : علم النفس الصناعى ، الجزء الأول ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٤.

٣٠ – محمود أبو النيل : أثر التدريب المهنى على التنظيم العاملى للأداء على الاختبارات العملية لدى مجموعة من السائقين ، بالكتاب الثانى لجمعية علم النفس ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥.

٣١ – محمود أبو النيل : العلاقة بين الاضطرابات السيكوسوماتية فى الصناعة والصفحة النفسية للذكاء ، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس ، العدد ١٤ ، ١٩٧٤.

٣٢ – محمود أبو النيل : العوامل النفسية المرتبطة بالأمراض الجلدية وجوانبها الإرشادية والتربوية ، مجلة جامعة الإمارات ، المجلد الأول ، ١٩٨٢.

٣٣ – محمود أبو النيل : علاقة الاضطرابات السيكوسوماتية بالتوافق المهنى فى الصناعة ، رسالة دكتورة ، قسم علم النفس ، كلية الأداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٢.

٣٤ – محمود أبو النيل : علاقة نوع الصناعة بالاضطرابات السيكوسوماتية فى ضوء الاستجابة على قائمة كورنل ، فى كتاب قراءات فى علم النفس الصناعى لفرج ده ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٢.

٣٥ – محمود أبو النيل وأحمد فؤاد نجيب ، وسيد عبد العال : دراسة تقويمية لعملية الاختبار المهنى للمبعوثين من المدربين الفنيين إلى فرنسا ، لجنة علم النفس

والإنتاج بمؤتمر عم النفس الأول الأول بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧١.

٣٦ - محمود أبو النيل · الحد الأدنى اللازم للآداء على الاختبارات النفسية للسائقين وجداول المعايير التائية ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٨٠.

٣٧ - محمود أبو النيل : العوامل الانفعالية والسيكوسوماتية المتعلقة بالتوافق المهنى للعمال غير المنتجين فى الصناعة ، المجلة الاجتماعية القومية، العدد الأول ، ١٩٧٤.

٣٨ - محمود عبد القادر محمد علی : دراسة تجريبية العوامل التى تتضمن القدرة الميكانيكية ، لجنة علم النفس والإنتاج ، بمؤتمر علم النفس الأول ، القاهرة ، ١٩٧١.

٣٩ - مصرى حنورة : الأنماط المختلفة من السلوك القيادى ، الأسس النفسية للإبداع الفنى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٠.

٤٠ - نادية الشرنوبى (٢٠٠١) ، مصادر الضغوط لدى عينة من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة وعلاقتها بالاحتراق النفسى وبعض المتغيرات الديموجرافية ، مجلة كلية التربية جامعة الأزهر .

٤١ - هدى صقر : قدرات التفكير الابتكارى وعلاقتها ببعض العوامل الانفعالية لدى الإدارة العليا فى قطاع البترول ، مجلة البحوث الإدارية ، العدد ٣، ٤ ،المجلد (٥) أكاديمية السادات ، ١٩٩٣ .

٤٢ - هناء فهيم محمد السعيد قاسم : دراسة مقارنة فى سيكوسوماتية التوافق المهنى بين المصريين العاملين فى بنوك وطنية والمصريين العاملين فى بنوك أجنبية ، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب جامعة عين شمس ، ١٩٨٨.

٤٣ – وفاء حسين ، فاروق رضوان : اشتراك العاملين في مجلس الإدارة واللجان النقابية ، لجنة علم لنفس والإنتاج، بمؤتمر علم النفس الأول ، ١٩٧١.

44 - Ashton , Robert H. & Hubbnrd Allisoa, 1995, Judggment and decision making researchrn accounting and auditiong , New york, Cambridge University Press.

45 - Cartwright, Susan & Cooper Caryl., 1997, Manging Workplace Stress, U.S.A, Sage Publication , Inc.

46 - Edurin R.B., 1964, Some Determinant of Job Satisfaction : A study of the Generality of Hersberg's Theory, Journal of Applied Psychology, vol. 48,N.3.

47 - Gregory W. Lary, & Burroydghs W. Jefferey, 1989, Introduction to Applied psychology, London, Scott, Foresman and Comp. P.81.

48 - Koppes Laurs L., SIOP information TIP Jobnet conference, site search Homepage Graduate programs media publications links.

49 - Miner John P., 1992, Industrial organizational psychology, New York, McGrow-Hill Inc.

50 - Spector Paul E., 1996, Industrial And organizational psychology research and proctice, New York, John willy & Sons, Inc.

51 - Stagner Ross, 1982, Past and Future of Industrial organizational

psychology, professional psychology, Vol. 13, no. 6.

52 - Spery len , 1996, Mental Health practice under managed care, vol.5., New york , Bruner Mazel Inc.

53 - Seal, Frank E. I Knight, Patrick A., 1994, U.S.A., Books Cole publishing Co.

54 - Riggio Ronald E. & lyman W. Forter , 1996, Introduction to industrial organizational Psyclalogg (2 nd ed.), New york, Harper Collins College publishers.

علم النفس والسياسة

قدرى حفنى

السادة الحضور ..

علاقتى بموضوع المحاضرة علاقة شخصية ، ففى منتصف الخمسينيات ، حين التحقت بالجامعة ، كانت مصر تشهد تبلور ملامح يوليو ٥٢ . كان غبار أحداث ما عرف باسم أزمة مارس لم يهدأ بعد ، وقبلها كانت أحداث كفر الدوار . كانت كلمات الديموقراطية والإقطاع ، والاحتلال البريطانى ، والثورة ، بل والإسلام أيضًا ، تتردد مختلطة بأسماء محمد نجيب وجمال عبد الناصر وخالد محيى الدين ، وأيضًا خميس والبقرى عمال كفر الدوار الذين تم إعدامهم ، وعدلى لملوم نموذج الإقطاع الذى حوكم وسجن ، إلى آخر قائمة طويلة من أسماء نجوم هذه المرحلة . وفى مثل هذا المناخ تزدهر عادة التساؤلات الكبرى عن حركة التاريخ وتوجهات المستقبل . كانت تلك التساؤلات تشغل آنذاك غالبية أساتذة الجامعة وطلابها على حد سواء .

فى ظل هذا المناخ كانت بداية تعرفى على الماركسية وعلى التحليل النفسى معًا. كان الفكر الماركسى آنذاك ينفض عن نفسه آثار الستالينية ، محاولاً أن يتحسس مواطئ أقدامه فى مرحلة ما بعد ستالين ، مراجعًا للعديد من تصوراته الدجماطيقية القديمة ، مخففًا من حدة اتهام المخالفين بالهرطقة . أما بالنسبة للتحليل النفسى فقد شهدت تلك الفترة حوارًا خصبًا بين اليسار الماركسى الأوروبى وبين التحليل النفسى ، وبدأنا نتعرف على ڤلهلم رايخ ، وچورج بوليتزير ، وهنرى ڤالون ، ولوسيان سيڤ ، وشهدت تلك الفترة كذلك بزوغ عدد من الفرويديين الجدد المتمردين على التحليل النفسى الفرويدى، شدنى منهم إيرك فروم .

لقد بدأت لى تلك الماركسية الجديدة المتآلفة مع اتجاهات أولئك الفرويديون الجدد بمثابة المصدر النموذجى للإجابة على التساؤلات الوطنية الكبرى التى كانت تشغل جيلى آنذاك . ومضيت فى طريقى وقد خيل إلى أننى قد أوتيت من العلم الكثير ، وأنه لم يبق سوى أن أحاول ممارسة ما عرفت . ولم يكن ثمن تلك المحاولة هينًا ، سنوات من الاعتقال والتعذيب ، تركت على الجسد آثارًا لم ينجح الزمن فى محوها ، وارتجف الجسد وعانى كثيراً ، ولكن ظل الفكر متماسكًا ، وبقى اليقين ثابتًا ، ولو إلى حين . إلى أن وقعت واقعة يونيو ١٩٦٧ ، وعندها ارتجف الفكر ، واهتز اليقين ، وكان الألم أكثر عمقًا . تكشف لى آنذاك – فيما تكشف – كم كنت متجاهلاً بل جاهلاً لطبيعة ما ألفنا أن نطلق عليه آنذاك " إسرائيل المزعومة" . وبدأت أتلفت حوالى كمتخصص فى علم النفس بحثًا عن سبيل للتعرف على ذلك المجهول "إسرائيل". ووجدتنى غارقًا منذ ذلك الحين فى خضم "علم النفس السياسى".

أصبحت مطالبًا بتبرير لإقدامى على دراسة موضوع "إسرائيل"، دراسة تنتمى لعلم النفس ، ولم يكن بد لتحقيق ذلك من محاولة التعرف من جديد على ملامح تاريخ العلاقة بين علم النفس والسياسة ، وسرعان ما تبين لى أنه يصعب تحديد تاريخ لبداية تلك العلاقة . اتضح لى – فيما يشبه الاكتشاف – أن علم النفس الذى نعرفه اليوم قد بزغ من رحم عالم يموج بالتغيرات الاجتماعية الفكرية العنيفة ، عالم الثورة الصناعية بما أفرزته من اغتراب للإنسان عن عمله ومن ثم عن عالمه ، عالم الثورة الفرنسية ، ، بما أفرزته من تحطيم لقيم إقطاعية سادت طويلاً لترسخ قيمًا جديدة تحمل شعارات الحرية والإخاء والمساواة ، عالم الصراع بين فلسفة مثالية ميتافيزيقية تحاول التمسك بمواقعها والتماسك فى مواجهة فلسفة مادية ماركسية صاعدة .

فى ظل هذا المناخ نشأ ڤلهلم ڤونت مؤسس ذلك العلم الجديد ، الذى كان تجسيداً لمحاولة الإفلات الفكرى من مأزق الاختيار بين المادية الماركسية ، والمثالية الميتافيزيقية، بتبنى فلسفة ماخ النقدية التجريبية . إن فهم دلالة افتتاح ڤونت لأول معمل يحمل اسم علم النفس فى لايبزيج عام ١٨٧٩ يصبح مستحيلاً ، إذا لم نفهم ڤونت المفكر الأيديولوجى والمناضل السياسى . وهو فهم لم يتيسر لى إلا بعد حين .

ولا يختلف الأمر كثيراً بالنسبة إلى سيجموند فرويد الذى تستحيل الإحاطة بدلالة نظريته فى التحليل النفسى ، أو فهم طبيعة الخلاف المستعر بينه وبين مخالفيه ، إذا لم نتعرف على بنائه الفكرى وطبيعة انتماءاته السياسية .

والأمر كذلك بالنسبة إلى وليم چيمس رائد علم النفس الأمريكى الذى يصعب فهم دلالة إسهاماته فى مجال علم النفس ، دون الإحاطة بظروف سيادة الفلسفة البراجماتية على المناخ السياسى الفكرى فى أمريكا آنذاك . كما أننا لا نستطيع أن نفهم اسهامات سكنر فى مجال التعلم بمجرد الإحاطة بنتائج تجاربه على الحمام، معزولة عن موقفه السياسى الفكرى الذى أفصح عنه فى كتابه المعنون "ما وراء الحرية والكرامة" ، وكذلك روايته" ڤالدن ٢" التى نشرت عام ١٩٤٨ .

أما إذا انتقلنا إلى الضفة الأخرى من ذلك العالم الذى أصبح قديمًا ، أى إلى الاتحاد السوڤيتى الذى كان ، لوجدنا أن رصد تدخل السياسة فى تحديد مسار علم النفس لا يحتاج تنقيباً ، فقد كانت قرارات اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوڤيتى هى التى تحدد أى النظريات النفسية أولى بالاتباع ، وأيها تستحق الإدانة والتحريم . ويكفى الإشارة إلى ذلك القرار الشهير الذى صدر عام ١٩٢٦ بإدانة علم التربية، سواء من حيث النظرية أو من حيث التطبيق، باعتباره يمثل مواقف علمية زائفة ومعادية للماركسية .

ذلك من تاريخ العلاقة بين علم النفس والسياسة ، ورغم ذلك التاريخ الطويل ، ورغم أن علماء النفس لم يكفوا عن تقديم مساهماتهم فى التطبيقات السياسية العملية، منذ نشأة علم النفس، وحتى الآن ، فقد أجفلوا طويلاً عن صك مصطلح "علم النفس السياسى "، ربما نفوراً من الإفصاح عن مواقفهم السياسية ، أو ترفعًا عن إلصاق شبهة السياسة بالعلم .

نشر أيزنك عام ١٩٥٤ كتابًا بعنوان "سيكلوچية السياسة "، أهداه إلى صغير يدعى جارى "أملاً أن ينشأ فى مجتمع يهتم بعلم النفس أكثر من اهتمامه بالسياسة". ثم يمضى محاولاً الربط بين الاتجاهات السياسية وأنماط الشخصية ، مؤكداً بوضوح

محاولته الفصل بين كونه مواطنًا له مواقفه السياسية ، و بين كونه عالمًا ينبغى أن ينأى بعلمه عن الأحكام القيمية ، حتى أنه لم يستخدم تعبير علم النفس السياسى طيلة صفحات الكتاب . أما بيتر دى بريز أستاذ علم النفس فى جامعة كيب تاون بجنوب إفريقيا ، فلم يكن غريبًا أن يحاول فى كتاب له صدر عام ١٩٨٠ تطبيق إحدى نظريات علم النفس الاجتماعى المتعلقة بالهوية لتفسير العملية السياسية التى عايشها فى موطنه ، ورغم ذلك فإنه يعبر فى مقدمة كتابه عن رؤيته السلبية للسياسة مستعيراً عبارة الكاتب والشاعر الفرنسى بول ڤاليرى " كانت السياسة هى فن منع البشر من التدخل فيما يعنيهم ، ثم أضيف إليها فن دفع هؤلاء البشر إلى اتخاذ قرارات فى أمور لا يفهمونها".

وعلى أى حال فإننا نستطيع أن نجتهد فنعرف مصطلح "*علم النفس السياسى*"، باعتباره ذلك الفرع من فروع علم النفس الذى يقع على منطقة التماس بين علم النفس والسياسة ، يتفاعل مع السياسة أخذًا وعطاءًا ، ينقل من السياسة لبقية فروع علم النفس الأرضية التاريخية السياسية اللازمة لفهم وتفسير نشأة وتطور وذبول النظريات والتطبيقات النفسية ، وينقل إلى السياسة من التقنيات والنظريات النفسية التى تساعد الساسة على تفسير الظواهر السياسية ، وتنفيذ الخطط السياسية فى الحرب والسلم على السواء .

ومن ثم فإن لعلم النفس السياسى دور فى تزويد صاحب القرار بما يلزمه من بيانات موضوعية تتعلق باتجاهات الرأى العام المحلى والعالمى ، الراهنة والمتوقعة ، بحيث يضمن للقرار السياسى أكبر قدر ممكن من التقبل والتأثير . كذلك فإن لعلم النفس السياسى دوراً فى تزويد المفاوض بما يلزمه من معلومات عن فنيات التفاوض ، وسمات الطرف الآخر التى تؤثر فى أسلوبه التفاوضى ، واتجاهات الجماعات الضاغطة حيال الموضوع محل التفاوض، إلى آخره . ويلعب علم النفس السياسى أيضًا دوراً أساسيًا فى مجال إدارة الأزمات الداخلية والخارجية، بما يتيحه لصاحب القرار من معلومات تتعلق برؤية الجماهير فى الداخل والخارج لطبيعة الأزمة ، وتوقعاتهم لمسارها ، مما يسهم فى ترشيد قرارات إدارتها .

والحديث عن علم النفس السياسي بهذا التحديد ، لا يعنى بحال أنه يمثل موقفًا فكريًا موحدًا متسقًا من القضايا ذات الطابع السياسي، كالعنف والحرب والدين والجنس إلى آخره ، بل أن علماء النفس بعامة يتباينون من حيث توجهاتهم الفكرية ومصالحهم الاقتصادية ومن ثم من حيث توظيفهم لعلمهم . إن من بين أولئك المتخصصين من كرسوا أنفسهم لخدمة قوى الشر والتعصب والعدوان، موظفين علمهم فى خدمة النازية ، أو المكارثية ، أو الستالينية ، أو الصهيونية إلى آخره ، ومنهم أيضًا من دفعوا من أرزاقهم ، ومن حريتهم ، بل ومن قدموا حياتهم استشهاداً فى سبيل قوى الخير والعدل والحرية ، موظفين علمهم فى خدمة حركات التحرر، أينما كان موقعها . وإذا كان أبناء الفريق الأول قد وجدوا لأنفسهم مكانًا فى العديد من التنظيمات الحكومية الرسمية ، فإن أبناء الفريق الثانى قد أقاموا لأنفسهم عشرات التجمعات غير الحكومية التى تعبر عن أهدافهم .

إن تراث تطبيقات علم النفس السياسي يفيض بالعديد من النماذج التى تتباين من حيث طبيعة الطرف المستفيد . ويعد الصراع العربى الإسرائيلى نموذجًا مثاليًا فى هذا الصدد ، ففكرة اختزال الصراع بين العرب والمستعمرين الإسرائيليين ليصبح كما لو كان صراعًا نفسيًا قد تجد لها أنصاراً بين صفوف علماء النفس السياسى والسياسيين على حد سواء ، ولكن الرؤية المقابلة التى ترى أن جوهر الصراع إنما يتمثل فى الأرض المحتلة تجد لها جنوداً من المناضلين السياسيين ، كما تجد لها مكانًا فى أدبيات علم النفس السياسى .

السادة الحضور ..

كان حديثنا حتى الآن عن تاريخ علم النفس فى الخارج ، وفى الحقيقة لم تكن بلادنا استثناءً من حيث وجود ذلك التشابك الوثيق بين السياسة وتاريخ علم النفس . لقد قام علم النفس فى بلادنا على أكتاف ثلة معدودة من الرواد، لعل فى مقدمتهم

يوسف مراد ، ومصطفى زيور ، اللذان أصدرا أول مجلة تحمل اسم علم النفس فى يونيو ١٩٤٥ ، واستمرت حتى فبراير ١٩٥٣ . وسوف نعتمد فى موضوعنا على أعداد هذه المجلة ، إلى جانب مقابلات مع عدد من رواد وأساتذة علم النفس فى منتصف السبعينيات ، من بينهم زيور والقوصى وسويف، وقد شاركت فى إجراء تلك المقابلات مع الزميلين صفوت فرج ، وعبد الحليم محمود .

تتصدر العدد الأول من المجلة بصمات سياسية لا تخطئها العين ، صورة الملك فاروق "راعى العلم ، والأمين على التراث الثقافى فى مصر الحديثة" ، ثم " كلمة جماعة علم النفس التكاملى المشمولة برعاية سمو الأميرة شويكار ". ويقول سويف فى مقابلة معه فى يونيو عام ١٩٧٦: "لفت نظرى أن المجلة كانت تحمل عنوان تحت رعاية الأميرة شويكار ، وكان الجو السياسى فى مصر ملتهبًا ضد الملك والعائلة المالكة، وابتدأت بعض الهتافات فى بعض المظاهرات فى هذا الاتجاه، فشعرت بنوع من الاستغراب، ولكن لم تثر عندى أى شىء من المعارضة، ولكن كان تساؤل بينى وبين نفسى".

وحوت المجلة فى عددها الصادر فى أكتوبر ١٩٤٥، موضوعًا يستوقف النظر عن "اختيار ضباط الجيش" ، يتضمن الإشادة بنجاح الأسلوب الذى تتبعه بريطانيا فى اختيارها لضباط جيشها . وتضمن العدد التالى الصادر فى فبراير ١٩٤٧ كلمة تحت عنوان " علم النفس فى كلية أركان الحرب الملكية" ، تبدأ بالإشارة إلى أن المقالة التى نشرت فى العدد السابق كان لها أحسن الأثر فى الأوساط العسكرية العليا ، وأن كلية أركان الحرب الملكية قد نظمت سلسلة من المحاضرات فى علم النفس بدأت من ديسمبر ١٩٤٦، ساهم فيها الدكتور يوسف مراد . ولم يفت المجلة أن تورد حضور " لفيف من كبار ضباط الجيش ، وعلى رأسهم عثمان باشا المهدى ، والأميرالاى أحمد بك فهيم كومندان الكلية الحربية ، والدكتور عازر بك دميان من كبار ضباط الجيش ، و قد أبدى عزته رغبته فى إدخال نظام الاختبارات فى الجيش ، وإنشاء العيادات السيكلوجية إلى جانب العيادات الطبية" .

وإثر حرب ٤٨ خصصت المجلة عددها الصادر فى يونيو / سبتمبر ٤٩ لموضوع علم النفس والحرب ، تصدره مقال للأميرالاى أحمد شوقى عبد الرحمن بك – الذى اتضح فيما بعد أنه من تنظيم الضباط الأحرار – يتناول فيه الدور الذى لعبته الشائعات المعادية فى نشر الذعر بين الفلسطينيين "إبان الحرب الأخيرة".

ويورد يوسف مراد فى سيرته الذاتية التى نشرها مراد وهبه ما يوضح أن الدعوة إلى إدخال الخدمات النفسية فى الجيش قد تحققت بعد الثورة مباشرة فى أغسطس ١٩٥٢، حيث ساهم فى أنشطة إدارة التدريب الحربى "بتنظيم قسم للخدمة السيكلوجية فى الجيش ، وتطبيق اختبارات الذكاء والشخصية على طلبة الكلية الحربية فى ١٠، ١١ من سبتمبر ١٩٥٢، ثم إلقاء محاضرتين فى كلية أركان الحرب، التى لم تعد ملكية آنذاك، عن الانفعالات والتمويه والإخفاء ، وذلك فى ٢٨، ٣١ يناير ١٩٥٣ ، ثم التدريب لمدة شهر فى صيف ١٩٥٣ على الاختبارات فى مركز الخدمة السيكلوجية للجيش الفرنسى فى مدينة فرساى .

ولم يكن مراد هو الفارس الوحيد فى هذا الارتباط المبكر بالنظام الجديد ، بل نافسه فرسان آخرون من كلية التربية . ففى نفس مجال الخدمات النفسية للقوات المسلحة كان ثمة فارسًا آخر هو أحمد زكى صالح . أما القوصى فقد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالصاغ كمال الدين حسين، أشهر وزراء التعليم فى عهد الثورة ، الذى عينه مستشارًا فنيًا له بوزارة التعليم . وكذلك السيد خيرى الذى اختار لإسهاماته مجالين متميزين : مجال الصناعة، ومجال الأمن القومى للنظام . أما عثمان نجاتى فإنه يشير فى مقابلتنا معه إلى إسهامه فى إنشاء إدارة لتحليل الرأى العام فى مصلحة الاستعلامات، التى كان يرأسها عبد القادر حاتم .

كان هؤلاء هم أبرز فرسان علم النفس الذين التصقوا بوضوح وبشكل قاطع بنظام يوليو عند بزوغه ، ولكن ظل على الضفة الأخرى صنف آخر من الفرسان، لعل أبرزهما المصطفيان : زيور ، وسويف ، إنهما ينتميان لمدرستين من مدارس علم النفس لم يعرف بينهما سوى الشقاق والنفور : مدرسة التحليل النفسى بتفرعاتها

المختلفة ، والمدرسة السلوكية بألوانها المتعددة . ترى كيف جمعهما فى مصر موقف سياسى واحد ؟

يبدو أن مقولة " أن مصر قد تخصصت فى كسر القوانين التاريخية العامة" تصدق على حالتنا هذه . لقد اختلفت توجهات مدرسة التحليل النفسى فى مصر عن نظيرتها فى بلدان العالم الغربى، من حيث الموقف من قضية الاستعمار الصهيونى لفلسطين . المحللون النفسيون فى العالم الغربى، بحكم صهيونية غالبيتهم، وقفوا بعلمهم إلى جانب نشأة إسرائيل الدولة ، ودافعوا بقدر ما وسعهم الجهد عن مبررات تلك النشأة . وكان طبيعياً والأمر كذلك أن يجد المتأمل فى سير حياة العديد من أقطاب حركة التحليل النفسى أن الخيوط متداخلة متشابكة بين ممارستهم العملية للنشاط الصهيونى والتحليل النفسى .

ذلك هو موقف التحليل النفسى الفرويدى ، ولكن لو نظرنا إلى زيور الذى كان لا يفتأ يعبر عن انتمائه للفرويدية الأورثوذكسية ، لوجدناه مختلفًا فى موقفه السياسى الوطنى ، سواء من حيث قضايا الوطن الداخلية وعلى رأسها قضية الليبرالية ، أو من حيث القضية الفلسطينية . كان زيور مؤمنًا بالحرية السياسية ، وقد انعكس ذلك فى احتضانه ومساندته لأبنائه الذين استضافتهم السجون والمعتقلات السياسية المصرية بتهم متباينة يجمعها رفض النظام القائم ، والذين يشكلون مجموعة تستوقف النظر من أوائل خريجى قسم علم النفس : أحمد فائق ، ورؤوف حلمى ، وحسين عبد القادر ، ومحمود الأنصارى ، وعبد القادر شاهين ، ولطفى فطيم ، وكاتب هذه السطور . لقد احتضنهم زيور جميعًا فى وقت كانت فيه مجرد شبهة التمرد على النظام كفيلة بالفرار من صاحبها وتجنبه تجنب السليم للأجرب .

كذلك فقد كان زيور مهمومًا بقضية " الفتنة الطائفية ". تحدث وكتب فى فبراير ١٩٥٢ عن سيكلوجية التعصب إثر إحراق كنيسة بالسويس ، وتطرق فى معالجته للموضوع إلى أحداث ٢٦ يناير ، مفسراً الظاهرتين باعتبارهما صوراً من إزاحة العدوان الموجه أصلاً إلى المحتل الإنجليزى ، وأن إزاحته بهذه الصورة إنما ترجع إلى

قيام ما يحول دون توجيهه إلى هدفه الأصيل . ولم يفت زيور التحذير من الاكتفاء بالتفسيرات النفسية، مشيراً بوضوح إلى " أنه لا سبيل إلى ضبط العدوان فضلاً عن نقله إلا إذا عالجنا مصادر النقمة والحرمان الأصلية ..... وغني عن البيان أن هذا يقتضي دراسة الأحوال الاقتصادية ، ولابد لنا من الاستعانة في ذلك بالأخصائيين في علوم الاقتصاد " . لعل تلك العبارة وحدها تضع زيور، ومدرسته المصرية للتحليل النفسي ، في موقع متمايز عن المدرسة الفرويدية الأورثوذكسية التي قامت في الغرب على الاختزالية السيكلوجية بما يخدم الهدف الصهيوني . ولقد اتضحت الصورة أكثر في إقدامه على معالجة العدوان الإسرائيلي من منظور التحليل النفسي في مقالين نشرا عام ١٩٦٨، محاولاً تفسير رحلة اليهودي التائه من الجبن إلى العدوان ، كذلك لماذا اختار اليهود أرض فلسطين ، فإذا به في أكثر من موضع يؤكد أن المعالجة النفسية للموضوع لا ينبغي أن تغفل العوامل السياسية والاقتصادية والإمبريالية التي أدت إلى ما حدث .

أما المصطفى الثاني ، مصطفى سويف ، فقد آثر أن يكون موقفه من قضية الديموقراطية السياسية موقفًا حياتيًا صارمًا وإن كان صامتًا . لقد شاء له القدر أن يتتلمذ على يوسف مراد ، رفيق زيور في إصدار مجلة علم النفس . ولقد عرضنا للموقف الذي اختار مراد أن يتخذه من السلطة سواء في ظل الملكية ، أو بعدها. ويسجل سويف في مقابلاتنا معه أنه حدث خلاف حاد بينه وبين مراد عقب قيام الثورة، حيث طلب منه مراد في أواخر ١٩٥٢ أن يعاونه في تطبيقات علم النفس في الجيش ، ويبدو أنه ،أي مراد، كان على ثقة تامة من موافقة سويف على ذلك ، ولا غرو فهو تلميذه الأثير ، الذي مازال ينجز رسالته تحت إشرافه ، فإذا بسويف يقول له بوضوح: " أنا لا أستطيع أن أسمح لنفسي أن أضع علمي في خدمة هذا الحكم الاستبدادي"، ويشير سويف أيضًا إلى موقف آخر حدث في نفس فترة بداية الثورة حيث يقول : "دار حديث غريب بيني وبين فايزة على كامل . وجدت فايزة فرحانة لأن لها أخ في الحركة، وكانت بتكلمني وفاكره أنني فرحان زيها، ولكن أنا مكنتش فرحان

أو زعلان . هى كانت بتكلمنى عن الثورة وأيه اللى حتعمله فى المجتمع فقلت لها: لا يمكن ، دى لابد أن تكون ديكتاتورية". ولم يمض وقت طويل إلا وطلب مراد من سويف فى منتصف ١٩٥٣ الاشتراك فى ترجمة كتاب جيلفرد لحساب مؤسسة فرانكلين الأمريكية، فاعتذر له عدة مرات متعللا بانشغاله ، وتحت إلحاح مراد " قلت له أنا غير مستعد أن أترجم للأمريكان أو للروس، وأنا غير مستعد أن يدخل جيبى أى مليم غير وطنى".

وبطبيعة الحال فقد تغيرت مواقف الجميع مع تعرجات مسار ثورة يوليو، والتفاف العديد من المثقفين الوطنيين حولها .

السادة الحضور ..

كان حديثنا حتى الآن عن التاريخ ، فماذا عن الصورة الراهنة لعلم النفس السياسى فى عالم اليوم ؟ تعد رابطة علم النفس السياسى بمثابة المنبر الدولى الرسمى للمشتغلين بعلم النفس السياسى فى العالم ، وقد تأسست الرابطة عام ١٩٧٨، ويبلغ حجم عضويتها ١٣٠٠ عضو . وتصدر الرابطة منذ نشأتها مجلة فصلية ، فضلاً عن أنها تواظب على عقد مؤتمر سنوى . وقد اختارت لمؤتمرها القادم الذى تزمع عقده فى المكسيك فى يوليو ٢٠٠١ شعاراً هو : "ثقافات العنف ، وثقافات السلام". ولعل استعراضاً سريعاً لعناوين الموضوعات التى تطرق إليها المشاركون فى مؤتمر ١٩٩٩، ٢٠٠٠ قد يتيح الفرصة لتذوق اهتمامات علم النفس السياسى فى عالم اليوم .

انعقد المؤتمر الثانى والعشرون فى أمستردام من ١٨ إلى ٢١ يوليو ١٩٩٩، تحت شعار : " قرن كونى / قرن محلى : الصراع ، والاتصال ، والتمدن ". وقد حضر المؤتمر ٥٠٠ عضو ينتمون لأربعين دولة ، وكان من ضمن الموضوعات التى دارت حولها مناقشات المؤتمر وأوراقه :

- الاتجاهات الحديثة فى فهم القومية والصراع العرقى .
- اللغة والسياسة .

- دراسات التسلطية بعد الحرب الباردة .
- سيكلوجية الاتجاهات العنصرية.
- الهوية والشتات : السود فى أمريكا وهولندا .
- الشخصية السياسية لبوش مرشح الرياسة لعام ٢٠٠٠
- الاتصال الجماهيرى والسياسة .
- العولمة والهوية الثقافية .
- المواجهات بين الجماعات اليهودية والعربية المتصارعة .
- السياسة الإسرائيلية فى مواجهة عملية السلام فى الشرق الأوسط .
- كيف نفهم الصين ؟ روسيا ؟
- علم النفس ، ومشكلات السلاح النووى .
- العنف السياسى .

أما مؤتمر عام ٢٠٠٠ فقد انعقد فى واشنطن من ١ - ٤ يوليو ٢٠٠٠ تحت شعار "الآمال والمخاوف : الانتقال إلى الألفية الثالثة " ، وتضمنت قائمة موضوعاته :

- الشخصية والسلوك السياسى .
- العولمة والهوية .
- دور الوساطة فى إدارة الصراعات .
- الهوية والصراع فى الشرق الأوسط .
- علم النفس ، والاقتصاد .
- السياسة فى شرق آسيا .
- تصاعد وخفوت الصراع فى الشرق الأوسط .

- العوائق الثقافية للديموقراطية .
- الأمن والسياسة الخارجية ، وإدارة الصراع .

ورغم أننى لم أتمكن من حضور أى من مؤتمرات رابطة علم النفس السياسى ، فقد أتيحت لى فرصة حضور ومتابعة جلسات الدورة الأخيرة من دورات المؤتمر الدولى لعلم النفس التى شهدتها العاصمة السويدية ستوكهولم فى الفترة من ٢٣ – ٢٨ أغسطس عام ٢٠٠٠ . وقد كان من أبرز معالم هذه الدورة . تدشين مجال جديد من مجالات علم النفس ، اختار له المؤتمر عنوان " الدبلوماسية وعلم النفس " . ولعله مما يستوقف النظر أن الدعوة لتدشين هذا المجال الجديد قد انبعثت من جانب الدبلوماسيين طلبًا لإسهام يتوسمون فى علم النفس إمكانية إضافته إلى ممارستهم العملية فى المجال الدبلوماسى . ولقد افتتح چان إيلياسون وزير خارجية السويد أولى الجلسات التى انعقدت تدشينًا لهذا المجال الجديد تحت عنوان " السيمينار التذكارى لداج همرشولد عن الدبلوماسية وعلم النفس " . وأشار إيلياسون – الذى كان سفيرا للسويد فى الولايات المتحدة ، كما أنه عمل لفترة فى سفارة السويد بالقاهرة – إلى أن ظروف العالم الجديد هى التى تدعوه كدبيلوماسى محترف إلى الدعوة لتدعيم اقتراب الدبلوماسية من علم النفس . موضحًا أن انفجار الصراعات الداخلية قد أصبح بمثابة السمة المميزة لعالم اليوم . وأن "الدبلوماسية الوقائية **preventive diplomacy** " تكتسب فى مثل هذا الموقف معنى جديدًا يقتضى تطوير ما أطلق عليه "ثقافة الوقاية **culture of prevention**" ، التى ينبغى أن يتزود بها الدبلوماسى فى عالم اليوم . وتشمل تلك الثقافة – فيما يرى إيلياسون – عدة مكونات :

أولاً – إنها ينبغى أن تشمل نظامًا للإنذار الحضارى المبكر، بمعنى التقاط وتفسير النذر الأولى التى تنبئ بأن ثمة انفجارًا متوقعًا ، أو على حد تعبير إيلياسون: "ضرورة توافر عيون وآذان سيكولوجية لالتقاط تلك النذر " . ويضرب مثلاً لذلك من واقع خبرته فى الصومال ، مستخلصًا أنه كان يمكن توفير الكثير من الجهد ، والخسائر البشرية ، لو تمت القراءة المبكرة لنذر انفجار الصراعات دون انتظار ظهورها على شاشات التليفزيون بعد انفجارها بالفعل .

ثانيًا – أنها ينبغى أن تشمل فهمًا علميًا متعمقًا لطبيعة جذور الصراعات العرقية ، والحضارية ، والدينية ، والقومية ، بحيث يمكن معالجتها بكفاءة فى حال تصاعدها .

ثالثًا – أنها ينبغى أن تشمل فهمًا علميًا لإستراتيجيات حل الصراعات، كالتفاوض والوساطة والتصالح إلى آخره .

رابعًا – أنها ينبغى أن تشمل كذلك الإحاطة الدقيقة بأساليب توفير الثقة المتبادلة بين أطراف النزاع بعد إنهائه، ضمانًا لاستمرارية ورسوخ استقرار الأوضاع .

ويرى إيلياسون أن توافر مثل هذه الثقافة للممارس الدبلوماسى لا يمكن أن يتحقق إلا بإقامة علاقة وثيقة بين علم النفس والدبلوماسية . ولقد تضمنت جلسات " علم النفس والدبلوماسية " ، التى امتدت عبر أيام المؤتمر ، حواراً ثرياً متعمقًا بين الدبلوماسيين وعلماء النفس . وقد علمت أخيراً أن وزارة الخارجية السويدية قد أنشأت قسمًا يختص بهذا المجال .

السادة الحضور ..

والآن ، ترى ماذا عن علم النفس السياسى فى مصر . إن محاولة الإطلال على ما يجرى فى علم النفس فى العالم الغربى لم تكلفنى جهداً يذكر ، أما حين يممت صوب الساحة العلمية المصرية ، فقد تبينت بعد جهود مبعثرة يائسة ، أن مهمتى بالغة الصعوبة ، وأن معرفة ما جرى ويجرى فى جامعة ملبورن مثلاً أيسر بما لا يقارن من محاولة التعرف على ما أنجز فى جامعة عين شمس فى هذا المجال . ولم يعد أمامى وقد دهمنى الوقت إلا الاكتفاء بحصر عناوين الموضوعات التى تعرضت لها البحوث التى شاركت فيها باحثًا أو مشرفًا عبر السنوات الماضية، وهى لا تعدو فى النهاية أن تكون مجرد نماذج محدودة لا تعبر سوى عن مشروعى الفكرى فى مجال علم النفس السياسى ، وتنقسم تلك الموضوعات إلى :

أولاً – موضوعات تتعلق بالصراع العربى الإسرائيلى :

- رؤى عينات من أبناء الجماعات القومية الضالعة فى الصراع العربى الإسرائيلى ، لجذور الصراع وآفاق تطوره .
- اتجاهات الفلسطينيين نحو الهجرة .
- السمات الشخصية لعينات من الشباب الفلسطينى واللاجئين الفلسطينيين .
- دراسات مقارنة فى أدب الأطفال في مصر وإسرائيل والأردن وسوريا .
- صورة إسرائيل فى الصحافة المصرية .
- صورة الإسرائيلى كما يدركها المصريون .
- دور المعلومات فى تشكيل وتعديل الاتجاهات فى الحرب والسلام .
- صورة البطل المقدمة للطفل المصرى فى مجتمع الحرب والسلام .
- تصورات المثقفين المصريين لخصائص بعض الجماعات القومية واتجاهاتهم نحوها .

ثانياً – موضوعات تتعلق بالقضايا السياسية الداخلية :

- سيكولوچية الانتماء .
- الأبعاد النفسية للمشاركة الشعبية .
- الشخصية العسكرية المصرية .
- سكيلوجية التعصب .
- العنف الجماهيرى التلقائى .

- العنف السياسى .
- الخصائص البيئية والنفسية لأسر جماعات العنف السياسى فى مصر .
- السمات الشخصية للفتيات المحجبات .
- سيكلوجية الانتماء الإسلامى .
- ملامح الصورة الذهنية للداعية الإسلامى فى البرامج الدينية بالتليفزيون المصرى .
- اتجاهات المراهقة نحو البرامج الدينية .
- موقف جريدة الأهرام تجاه قضايا التطرف الدينى عند الشباب .
- ديناميات جماعة المسجونين .
- تأثير العقوبة السالبة للحرية على البناء النفسى للمسجون .
- سيكلوجية طاعة السلطة فى المجتمع المصرى .
- أحادية الرؤية وموقعها فى سمات الشخصية المصرية .
- تصور الشباب للمستقبل .
- الصورة الذهنية للعالم لدى المراهقين .
- إدراك الهوية القومية لدى الطفل المصرى .
- صورة مصر لدى فئات من المراهقين .
- مجلات الأطفال المترجمة فى مصر والتبعية الإعلامية .
- العلاقة بين الاختلاط فى التعليم والتعصب الجنسى .

وذلك فضلاً عن سلسلة من البحوث اعتمدت على تطبيقات مقياس شاركت فى تصميمه مع أستاذى رشدى فام منصور لقياس أبعاد أحادية الرؤية فى المجتمع المصرى .

السادة الحضور ..

أود قبل أن أختتم محاضرتى أن أستأذن فى التقدم بتوصيات ثلاث أراها ضرورية لتطوير هذا المجال:

أولاً – تنظيم آلية فعالة لتفاعل مطلوب بين الدبلوماسية المصرية ، وعلماء النفس .

ثانيًا – إننا نفتقد فى أمتنا العربية أية مؤسسة تتيح لنا التعرف الموضوعى على آراء واتجاهات أبناء أمتنا حيال قضاياهم المصيرية . وبدون وجود مثل هذه المؤسسة فليس أمامنا سوى أن نتخذ قراراتنا فى ضوء انطباعاتنا التى تتعرض حتمًا للخلط بين الحلم والواقع ، بين ما نتمناه وما حققناه ، بين الجزئى والعام . وخطورة هذا الموقف غنية عن البيان ، ولذلك فإننى أقترح المبادرة بتدارس إنشاء جهاز لقياس الرأى العام .

ثالثًا – أننا نفتقد على نطاق الوطن العربى توثيقًا حديثًا ميسرًا للإنجازات العلمية فى علم النفس بعامة ، ولذلك فإننى أتمنى العمل على إصدار دورية منتظمة للملخصات السيكلوجية العربية .

السادة الحضور ..

لقد جرت العادة أن يتصدر الإهداء مقدمة العمل ، ولكنى وجدت الأكثر منطقية أن أهدى العمل وقد اكتمل .

أستأذن فى إهداء المحاضرة إلى صديق غاب عن عالمنا بعد أن قضى أحلى سنين شبابه وراء الأسوار ضمن الساعين إلى العدل الاجتماعى ، وأعطى أنضج سنين عمره ساعيًا من أجل علم نفس ملتزم بقضايا الجماهير ، ودفع الثمن باهظا فى الحالتين . اختلفت معه واختلف معه غيرى كثيراً ، إلى حد يقرب من الشقاق ، بل واختلفت عنه كثيراً، بحيث كنا أحيانًا نبدو نقيضين . ولكنا لم نفقد أبداً ذلك الرباط الوثيق الذى

جمع بيننا طويلاً : ثقة كل منا فى أن كلانا مأخوذ بحلم العدل الاجتماعى ، وبالأمل فى علم نفس ملتزم بقضايا جماهير أمتنا العربية، إلى صديق عمرى لطفى فطيم الذى مازلت أفتقده كثيراً .

السادة الحضور ..

أعتذر لكم عن الإطالة ، وأشكر لكم حسن الاستماع .

الفهرس

يضم هذا الكتاب المجموعة الثانية من سلسلة المحاضرات التى تقدمها "لجنة علم النفس" فى رحاب المجلس الأعلى للثقافة . وتتألف من ست محاضرات تقع جميعا ضمن الإطار الذى رسمت معالمه المحاضرة الأولى من السلسلة الأولى (أو الكتاب الأول) . وكانت بعنوان "علم النفس المعاصر : الإنجازات والوعود" ، فى هذا الإطار تمضى المحاضرات الست الجديدة ، وهى تتناول الإنجازات والوعود فى عدة مجالات مختلفة ، هى : التذوق الفنى ، والقانون ، والإعلام ، والصناعة والسياسة .

عبد الكريم

